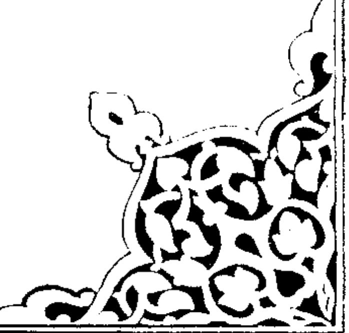
١

معجزة القرآن

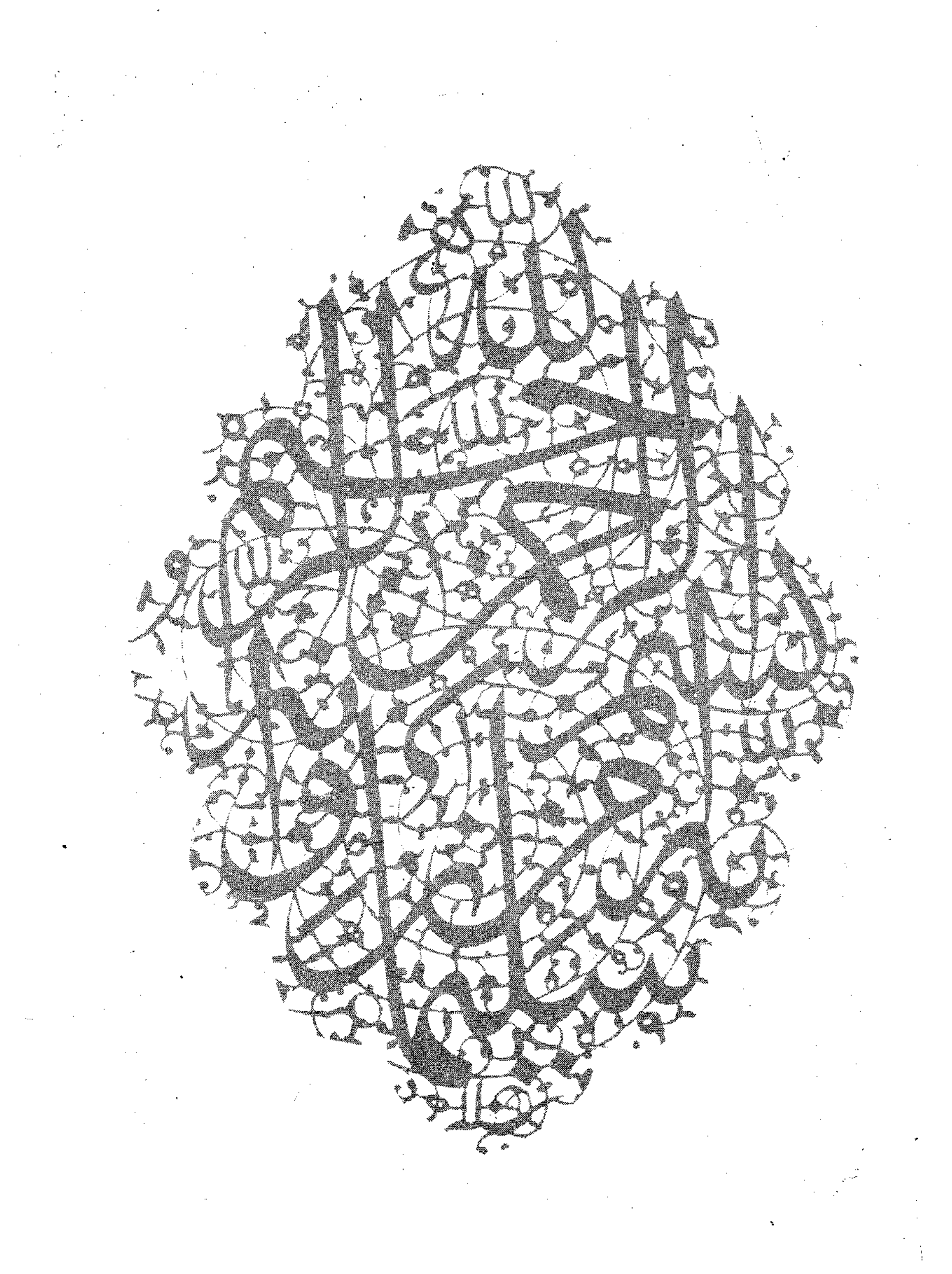
محمد متولي الشعراوي



ادارة الكتب والمكتبات

● مـاكيـت : أشـرف حسـين





الفصل الأول

ماهي المعجزة

ما هى المعجزة ؟

القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمتعبد بتلاوته والمتحدى به الانس والجن والعالمين . . ولم يتحد الله به الملائكة . . لأن الملائكة ليس لهم اختيارات يعملون بها . . إنما هم يفعلون ما يؤمرون . . ومن هنا فإن القرآن يتحدى كل القوى المختارة . . أو التى لها اختيار . . أو التى ميزها الله بقدرة العقل والفكر والاختيار .

على أننا قبل أن نتحدث عن معجزة القرآن . . فإننا يجب أولا أن نحدد ما هى المعجزة ؟ المعجزة هى خرق لنواميس الكون . . أو لقوانين الكون . . يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه . . ويثبتهم به . . ويؤكد للناس أنهم رسله تؤيدهم السماء وتنصرهم . . والسماء حين تؤيد وتنصر ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئا .

ولكننا حين يأتى إنسان ويقول إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهجه . . أنصدقه ؟ أم أننا نطالبه باثبات ما يقول ؟ إذن كان لابد أن تجىء مع كل رسول معجزة تثبت صدقه فى رسالته وفى بلاغه عن الله . .

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تمييزا واضحا قادرا . . فهى أولا تأتى وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه . . لماذا ؟ لأن التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحديا . . فمثلا إذا جئنا ببطل العالم فى رفع الأثقال . . وتحدينا به رجلا عاديا . . لا يكون هناك مجال للتحدى . . لماذا ؟ لأن المتحدى لم ينبغ فى نفس جنس العمل الذى أريد أن يتم فيه التحدى . . ولكننا إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم . . فإن التحدى يكون بينهما واضحا . . ويكون له معنى فيمن يثبت إنه هو الأقوى . .

وإذا جئنا بإنسان قد نبغ فى الطب مثلا . . وأرسلناه إلى بلد ليس فيه طبيب . . فلا يعتبر هذا تحديا . . لأنه لا يمكن أن يجد هذا الطبيب من ينافسه بحيث يكون هناك مجال للتحدى . . ولكننا إذا جئنا بهذا الطبيب وأرسلناه إلى أكبر عواصم الطب فى العالم . . هنا يكون تحديا لهذا الطبيب . . هو تحد بقوة العقل حيث أننا وضعناه فى اختبار مع أكبر ما فى عصره من قوة يمكن أن تواجهه . .

ما هى المعجزة ؟

نكون بذلك قد وصلنا إلى نقطتين . . النقطة الأولى . . أن المعجزة يجب أن تكون خرقا لقوانين البشر ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى الذى وضع هذه القوانين . . وثانيتهما أن المعجزة معجزة كل نبى يجب أن تكون مما نبغ فيه قومه حتى يكون التحدى نابغا وقويا . . واثباتا على قدرة الله سبحانه وتعالى . . فلا آتى بقوم نبغوا فى الطب مثلا وأرسل لهم معجزة فى البلاغة . . أو آتى بقوم قد نبغوا فى البلاغة وأرسل لهم معجزة فى الطب . . هنا الاحساس بالمعجزة لا يكون فيه التحدى القوى للإنسان . . فالتحدى يجب أن يكون فى أمر نبغ القوم فيه حتى لا يتحدى الله قوما بأمر لا يعرفونه . . ولا موهبة لهم فيه . . وحتى يكون للتحدى قيمة . . ومن هنا كانت معجزة كل رسول فيما نبغ فيه قومه . .

على أن المعجزة لا تأتى فقط بخرق القوانين . . والتحدى . . إنما توفر أسباب هذا التحدى . . بمعنى أن القوم الذين يريد الله أن يتحداهم يمكنهم من الأسباب كلها . . ثم بعد ذلك يعطل الأسباب . . فلا يتم الفعل . . ولنعط أمثلة سريعة على ذلك . . مثلا معجزة نجاة إبراهيم عليه السلام . . ومعجزة نجاة موسى عليه السلام . . كلتاهما معجزة . . وضعت فيها الأسباب . . ثم عطلت . . معجزة إبراهيم جاءت تحديا لقوم يعبدون الأصنام . . ويسجدون لها ويقدسونها . . ولذلك عندما أرادوا احراق إبراهيم كانوا يريدون أن ينتقموا لآلهتهم وهى الأصنام . . وكان الانتقام معدا بالشكل الذى يمجد هذه الأصنام . . ويجعل إبراهيم عبرة لكل إنسان تسول له نفسه أن يهينها أو يكفر بها . .

وجد إبراهيم ولم يحترق

جاءوا بإبراهيم . . وأمام آلهتهم وفى حمايتها . . أوقدوا نارا هائلة ليحرقوه . . والحرق هنا أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون الانتقام من إبراهيم انتقاما تباركه الآلهة وتجعله رهيبا . . وجاءوا بالحطب ووقفوا أمام آلهتهم مصدر قوتهم . . وأوقدوا النار الهائلة . . كل شىء هنا معد لتمجيد آلهة غير الله سبحانه وتعالى . . وأتوا بإبراهيم . . والسؤال هنا لماذا جعلهم الله يأتون بإبراهيم ليحرقوه فى النار أمام آلهتهم . . كان من الممكن أن يختفى إبراهيم فى أى مكان . . ولا يظهر . . وكانت هذه مسألة ممكنة تقى إبراهيم الحرق وتجعلهم

لا يعثرون عليه .. ولكن لوحدث هذا لقالوا لو أننا قبضنا على إبراهيم لاحرقناه .. وكانت ستظل قوة الآلهة المزيفة التى يعبدونها مسيطرة عليهم فى أن لها قدرة النفع والضر .. وإنها تنفع من يعبدها .. وتضر من يؤذيها ، وإنه لولا هرب إبراهيم لاحرق فى النار ودمرته آلهتهم وهى الأصنام تدميرا .. ولذلك كان لابد ألا يهرب إبراهيم بل يقع فى أيديهم ليشهد القوم جميعا سفاهة معتقداتهم وعجزها أمام قدرة الله ..

وكان من الممكن أن تنطفىء النار لأى سبب من الأسباب .. كأن ينزل المطر من السماء فتنطفىء النار .. ولكن هذا لم يحدث .. لماذا ؟ لنفس السبب ، لأنه لو انطفأت النار لقال الكفار أن آلهتنا كانت قادرة على أن تحرق إبراهيم .. ولكن السماء أمطرت .. ولو أن السماء لم تمطر لانتقمت آلهتنا منه بالحرق ..

فإبراهيم لم يهرب .. بل وقع فى أيديهم .. والنار لم تنطفىء .. بل ازدادت اشتعالا ثم ألقوا بإبراهيم فى النار ، فإذا بالله سبحانه وتعالى يبطل خاصية الاحراق فى النار .. وتكون بردا وسلاما على إبراهيم ..

إذن فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من النار .. ولو أراد الله أن ينجيه من النار مامكنهم من القبض عليه .. أو لنزلت الأمطار لتطفىء النار .. ولكن الله شاء أن تظل النار متأججة محرقة قوية .. وأن يؤخذ إبراهيم عيانا أمام الناس ويرمى فى النار .. ثم يعطل الله ناموس أو قانون إحراقها .

« قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم »

فتعطل إرادة الله خاصية إحراق النار .. وتقف آلهتهم تلك التى حطمها إبراهيم والنار متأججة .. وإبراهيم ملقى فى النار .. تقف آلهتهم التى أرادوا الانتقام لها أمام الملأ أجمع .. تقف عاجزة عن أن تجعل إبراهيم يحترق أو تناله بأى سوء ..

وموسى عليه السلام أوحى الله إلى أمه أن تلقيه فى اليم لينجو .. وآخر شىء يمكن أن يقوم به أب أو أم حين يريد أن ينجى طفله هو أن يلقيه فى الماء .. فالطفل عاجز صغير وليد .. والقاؤه فى الماء يعرضه لطير جارح يقتله أو يهاجمه وهو لا يملك لنفسه دفاعا ولا بأسا فيقتله .. وقد تأتى موجة صغيرة من الماء فتطيح بالسلة التى فيها موسى فينقلب فى الماء فيغرق فى الحال .. فهو لا يعرف شيئا عن العوم ولا يستطيع أن يفعل شيئا إذا سقط فى الماء .. وإذا لم يسقط فى

الماء فقد تأتى الأمطار لتملأ السلة التى هو بها . . فيختنق ويغرق . . وقد تأتى ريح تقلب هذه السلة فى الماء فيموت . . إذن فكل الأخطار موجودة فى القاء موسى فى اليم ماعدا فرصة الحياة . . والمنطق والأسباب والعقل كلها تقول أنه إذا أرادت أم موسى أن تنجيه فلتفعل أى شيء فى العالم إلا أن تلقيه فى الماء . . كان يمكنها أن تأخذه إلى مكان بعيد يختفى فيه . . وكان يمكنها أن تهاجر بابنها إلى خارج مصر . . وكان يمكنها أن تخفيه فى منزلها فى مكان حصين لا يصل إليه جنود فرعون . . ولكن الله أمرها بماذا . . بأن تلقيه فى اليم . . حيث يواجه خطر الموت أكثر مما يواجه احتمال الحياة . . وجعل فى هذا الخطر خطر موت موسى غرقا . . أو بطير جارح . . أو بريح قوية . . جعل هذه الأخطار كلها الطريق الوحيد المضمون لنجاة موسى . . لماذا ؟ لأن الله هو الفاعل . . وهنا تتعطل الأسباب . . ويصبح الالقاء نفسه هو النجاة والأمان والاطمئنان .

لماذا سجد السحرة ؟

نعود مرة أخرى إلى المعجزة . . لقد جاء كل نبى إلى قومه بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه . . قوم موسى نبغوا فى السحر . . فجاء موسى عليه السلام بمعجزة السحر . . وتحدى قومه . . فكان أول من آمن به هم السحرة . . لماذا ؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها . . فلما رأوا معجزة موسى كانوا أقدر الناس على فهمها . . والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله . . وقدرة البشر . . ولما أحسوه برهبة وهو يقابل ما نبغوا فيه من السحر بما أعطاه الله له . .

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾

(سورة الشعراء)

هكذا كان أول من آمن هم أولئك الذين نبغوا فى المعجزة . . وهم أولئك الذين أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم فيما نبغوا فيه ، فلما رأوا عظمة التحدى خروا ساجدين . لماذا ؟ لأن لديهم جزءا من العلم الأرضى فى

السحر . . إنما يخشى الله من عباده العلماء . . فلما رأوا المعجزة أحسوا بروعتها . . أحسوا بجلالها . . أحسوا بأنها من عند الله سبحانه وتعالى . . فنسوا فرعون ووعوده ، ونسوا الذهب والفضة وجاه الدنيا الذى ينتظرهم . . بل نسوا أن فرعون سيسومهم سوء العذاب . . وأنه جبار فى الأرض . . تلاشى كل هذا عندما رأوا المعجزة . . وخروا ساجدين لله . . وكانوا هم الذين أراد فرعون أن يتحدى بهم معجزة الله . . ودين الله . . فإذا بهم أول من يسجد لهذا الدين . .

تلك روعة المعجزة . . تستطيع أن تتبينها إذا عرفت أن السحرة كانوا موعودين بالجاه والسلطان والمال . . وكانوا هم أعوان فرعون الذين يروجون له . . وكان فى أيديهم حكم الدنيا إذا غلبوا . . أو إذا اتهموا موسى بأى اتهام باطل يروج له فرعون وجنوده . . ولكنهم بهتوا وذهلوا أمام معجزة فخروا ساجدين . . وتركوا كل هذا مضافا إليه عذاب فرعون عندما رأوا آية من آيات الله . .

وعيسى جاء إلى قومه وقد نبغوا فى الطب فأبرأ الأكمه والأبرص . . وزاد على ذلك بأنه أحيا الموتى بإذن الله . . إذن عيسى تحدى قومه فى شىء نبغوا فيه . . فجاء لهم بما تجاوز علمهم . . وزاد عليه بإحياء الموتى بإذن الله . . فكان التحدى من جنس ما نبغ فيه قومه . .

ومحمد عليه الصلاة والسلام جاء والعرب قوم بلاغة وفصاحة . . فجاء لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه ، وهى بلاغة القرآن التى تحدتهم وأعجزتهم . . فقالوا ساحر . . وقالوا مجنون . . على أننا سنتناول معجزة القرآن بالتفصيل فى الفصول القادمة . . حيث أن اعجاز القرآن ليس لغويا فقط . . ولكن له جوانب كثيرة من الاعجاز الذى يتحدى به الله سبحانه وتعالى الانس والجن إلى يوم القيامة . . والقرآن له عطاء يتجدد مع كل جيل من الأجيال . .

وإذا كانت المعجزة هى خرقا للعادة مقرونة بالتحدى . . ولا يستطيع أحد معارضتها . . فقد تأتى المعجزة خرقا للعادة ، ولكنها ليست مقرونة بالتحدى . . أى أن الله سبحانه وتعالى لا يتحدى بها البشر ولا يطالبهم أن يأتوا بمثلها . . بل إن هذه المعجزة تأتى لاثبات طلاقة قدرة الله فى كونه . . بحيث لا يخضع الإنسان كل الأشياء للأسباب والمسببات . . بل إن الإنسان المؤمن يجب أن يلجأ إلى الله

سبحانه وتعالى فيما تعجز عنه الأسباب . . فالله قادر قاهر ليس لقدرته قيود ولا حدود . .

قــــدرة الله

والقرآن يعرض مسألة المعجزة لاثبات طلاقة القدرة الإلهية فى سورة مريم . . يأتى ليثبت قضية من القضايا التى اعتاد فيها الناس الأسباب والمسببات . . وهى مسألة بقاء النوع . . وبقاء النوع مشروط بالتقاء رجولة وأنوثة لينشأ اخصاب وحمل . . ولابد أن تكون الرجولة مكتملة . . والأنوثة غير ناقصة ليتم ذلك . .

فيأتى الله سبحانه وتعالى ليثبت لنا طلاقة القدرة الإلهية بلا حدود ولا قيود . . حتى لا يفهم الإنسان أن الخلق مقرون بأسباب ومسببات لابد من وجودها . . ومن هنا فإن الله فى قضية الخلق يريد أن يدير المسألة من زواياها الأربع . . فليس بقاء النوع أو ايجاد النوع رهنا بوجود ذكر وأنثى . . بل هو رهن بمشيئة الخالق . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يخلق رجلا بلا ذكر ولا أنثى . . ويخلق من رجل بلا أنثى . . ويخلق من رجل وأنثى . . ويخلق من أنثى بلا رجل . . وبذلك تكون أركان الخلق الأربعة قد اكتملت . .

ولنشرح ذلك قليلا . . الله خلق آدم أول الخلق من غير ذكر ولا أنثى فآدم لم يكن له أب ولا أم وإنما خلقه الله سبحانه وتعالى . . ونفخ فيه من روحه . . هذه واحدة . . خلق من غير ذكر ولا أنثى . . وخلق الله حواء على الأرجح من الذكر دون الأنثى . . ثم خلق البشرية كلها من الذكر والأنثى بقى شىء فى الخلق أن يخلق الله من الأنثى بلا ذكر . . فتأتى مسألة عيسى عليه السلام . . يأتى بقية الكون كله من البشر . ويأتى عيسى عليه السلام من أنثى لم يمسسها رجل . . ومن هنا تكون القسمة للخلق أربعة . . فأصل الخلق كما أراده الله أن يكون . . وجعل له الأسباب هو من ذكر وأنثى . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون النشء من غير وجودهما معا ، فخلق آدم . . ومن وجود الرجل وحده ، فخلق حواء من آدم . . ومن وجودهما معا فخلق الكون كله . . وجعله يتناسل . . ومن وجود الأنثى دون الرجل . . فخلق عيسى . . وبذلك تكون أوجه الخلق كلها قد اكتملت . .

إلا أننا يجب أن ننتبه إلى شىء هام . . خلق الإنسان . . بدون ذكر أو

أنثى .. معجزة تخضع لله سبحانه وتعالى .. خلق الأنثى من الرجل وحده معجزة تخضع لارادة الله سبحانه وتعالى .. خلق الرجل من الأنثى وحدها دون أن يمسها رجل .. معجزة جعلها الله سبحانه وتعالى .. خلق الإنسان من ذكر وأنثى .. معجزة جعلها الله تمضى فى الدنيا بالأسباب والمسببات .. ولكنه لم يطلقها لتتم بالأسباب والمسببات وحدها .. فأدخل فيها المشيئة .. وقال سبحانه وتعالى :

« ويجعل من يشاء عقيما »

إذن كل معجزة الخلق التى تمت إنما تخضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى .. فليس وجود النوعين موجبا لأن يوجد الخلق ..

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

المسألة ليست وجود مسببات .. بل إن الله سبحانه وتعالى حين يريد للأسباب أن تفعل .. تفعل .. وحين يريدها أن تتعطل تتعطل .. وحين يريد أن تأتى بالعلل دون الأسباب يأتى بها فلا قيود ولا حدود لقدرة الله سبحانه وتعالى ..

وإذا تعطلت الأسباب

هذه قضية فى أصل الكون .. وهى قضية طرحها الله سبحانه وتعالى وأعطاها للبشر ليدخل الإيمان إلى قلب المؤمن فيضع فيه السكينة .. فالله سبحانه وتعالى يقول للمؤمن إذا ضاعت الأسباب فلا تيأس .. فأنا الذى خلقت الأسباب .. وأنا القادر على ايجاد المسببات دون القانون .. فلا تيأس إن عزت الأسباب .. ومن هنا يأوى المؤمن إلى ركن شديد .. ويحس بالطمأنينة تملأ قلبه .. ولا يمزقه

الفزع خوفا أو رعبا . . حينما يفقد أى شىء . . ذلك أنه يأخذ بالأسباب أولا . . فإذا عزت الأسباب أو تعذرت ووجد كل الطرق مغلقة فى وجهه ، اتجه إلى الله سبحانه وتعالى . . فالمؤمن لا ييأس من روح الله أبدا . . ولا تنهار نفسه . . ويضيع أمنه عندما يرى انهيار الأسباب . .

وتعرض لنا هذه القصة فى سورة مريم . . ميلاد مريم رضى الله عنها كان له ضجة . . يحكى ذلك القرآن الكريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْـرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَـرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّـا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾

(سورة آل عمران)

كلمة انى وضعتها أنثى التى قالتها امرأة عمران . . تحسر على أنها لم تضع ذكرا . . أى أن الوليد الذى جاء لا يؤدى الغرض الذى وهب من أجله . . لأن امرأة عمران نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى . . وكيف تستطيع مريم أن تؤدى الخدمة فى المعبد وهى أنثى . . وامرأة عمران تقول ان الرجل أفضل من الأنثى فى ذلك . . فيقول لها الله سبحانه وتعالى انك مازلت تحسبين أن الذكر أحسن من الأنثى . . هذه العملية التى تفكرين بها هى منطق الدنيا الخائب . . ويضيف الله سبحانه وتعالى :

« وليس الذكر كالأنثى »

أى أن الأنثى التى جاءت أفضل من الذكر الذى تمنيته . . وكأنما الأنثى لها مكانة أكثر مما تظنين . . فلا تقولى أن الله قد أعطانى أنثى ولم يعطنى ذكرا . . لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . ولأنه يعرف أن هذه الأنثى سيصبح لها شأن آخر . . وبعد ذلك نعرف أن والد مريم متوفى . . حيث أنها حين ولدت أرادوا أن يكفلوها . . وكلمة من يكفلها دليل على أن وليها الطبيعى وهو الوالد غير موجود .

ويكفلها زكريا . . ومعنى أن يكفلها زكريا ـ وفيه نبوة ـ أنه يأتى إليها بكل مقومات حياتها . . فعندما يدخل عليها المحراب يجد عندها رزقا . . ومعنى أن زكريا يجد عندها الرزق عند دخوله المحراب أو المكان الذى تصلى فيه مريم وتسجد . . معناه أنه لم يأت بهذا الرزق . . وإنما الذى أتى به هو الله سبحانه وتعالى . . بدليل أن زكريا يسألها :

« انى لك هذا ، قالت هو من عند الله »

وابتدأت الصغيرة المكفولة مريم بفطرتها تفهم أن الله سبحانه وتعالى ليس له قانون يحكمه . . وأنه يرزق من يشاء بغير حساب . .

هنا نتوقف قليلا لنعرف أن الله سبحانه وتعالى حينما أعد مريم للمهمة التى ستقوم بها جعلها أولا منذورة لله سبحانه وتعالى ولعبادته . . ثم جعل من يكفلها نبيا هو زكريا . . ثم بعد ذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يمهد لها فبين لها أن لكل شىء فى هذا الكون سببا . . إلا أن هناك أشياء تحدث بلا أسباب . . أو يعطل الله فيها الأسباب . . وبدأ بمسألة الرزق الذى يرزقها به . . فاكهة فى غير أوانها . . ورزق ليس موجودا فى الأرض . . تمهيدا لما هو قادم . . واعلانا لها بأن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء . . ثم بعد ذلك أتى الله سبحانه وتعالى بقضية أخرى هى دعاء زكريا بالولد . . عندما رأى الرزق بلا حساب عند مريم . . هنالك دعا زكريا ربه . . وطلب زكريا ولدا فاستجاب الله لدعائه . . وبشره بالغلام . . هنا تذكر زكريا عند هذه البشرى . . انهيار الأسباب عنده . . فقال يا ربى انى رجل عجوز . . وامرأتى غاقر . . أى أن الأسباب الكونية لإمكان الانجاب غير موجودة . . فكيف أستطيع أن أنجب طفلا . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق زكريا . . ولم يك شيئا يذكر فهو يستطيع أن يعطيه الغلام دون التقيد بالأسباب . . هنا تذكير مرة أخرى لمريم بأن الله

سبحانه وتعالى إذا أراد فإنه يوجد الأشياء بدون الأسباب نفسها .. أولا .. أعطاها الرزق بلا أسباب للرزق .. ثم استجاب لدعوة زكريا التى دعاها فى المحراب .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« هنالك دعا زكريا ربه »

وكلمة هنالك أن الدعاء تم فى المحراب عند مريم لتشهد مرة أخرى ما يثبت فؤادها فيما أعده الله لها .. فترى الخلق يتم بدون أسباب الخلق .. فزكريا عجوز .. وامرأته عاقر .. ومع ذلك فإن الله قادر على أن يرزقه بولد .. وكل هذا هدفه ألا تهتز مريم مما ستتعرض له من ولادة دون ذكر .. ومع ذلك .. ومع كل هذه المقدمات اهتزت مريم حين رأت جبريل عليه السلام ..

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

أى أنه بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن ولد لزكريا مع انتفاء الأسباب .. مع كل هذه المقدمات اهتزت مريم عندما رأت جبريل حتى أن الله سبحانه وتعالى ليثبتها قال لها :

« كذلك قال ربك هو على هين .. ولنجعله آية للناس »

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لمريم بعد كل هذه المقدمات من رزق بلا أسباب .. ومن خلق مع اختفاء الأسباب تتعجبين مما يحدث .. لقد قلت يا مريم :

« يرزق من يشاء بغير حساب »

شهدت يا مريم أن الله سبحانه وتعالى حين يريد تعطيل نواميس الكون .. وإيجاد المسببات بلا أسباب .. يستطيع أن يفعل ذلك . شهدته فى زكريا .. ومع ذلك تتعجبين .

معجزة ولكن ليست للتحدى

على أن هذه المعجزة .. معجزة خلق عيسى عليه السلام .. لم يكن مقصودا بها التحدى .. فالله سبحانه وتعالى لم يتحد بها أحدا .. لكن المقصود بها هو

ما هى المعجزة ؟

طلاقة القدرة . . أى أن الله يفعل ما يشاء . . ومقصود بها استكمال الخلق بحيث يصبح الخلق بدون ذكر أو أنثى . . ومن ذكر بلا أنثى . . ثم من ذكر وأنثى لمن شاء الله . . ثم من أنثى بلا ذكر . . وبذلك تكتمل مراحل الخلق . .

ومعجزة أخرى لم يتحد بها الله بشرا . . وهى معجزة شق موسى للبحر بعصاه . . فعندما طارد فرعون وجنوده موسى عليه السلام . . ووصل أتباع موسى الى البحر . . والبحر أمامهم . . وجنود فرعون وراءهم . . قال قومه إنا لمدركون . . وهذه مسألة طبيعية فى قوانين ومسببات البشر . . فجنود فرعون على بعد قريب . . والبحر أمام قوم موسى . . فهم لا يستطيعون مواصلة الفرار أو الهرب . . وحينئذ رفع موسى الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . لم يقل سنصعد الى جبل ليحمينا من فرعون وجنوده . . ولم يقل سنستقل سفينة ضخمة نهرب بها من فرعون وجنوده . . ولم يقل إننا سننجو بطريقة كذا وكذا . . وإنما حينما قال له قومه انا لمغرقون . . رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . وقال بملء فيه :

« **كلا ان معى ربى سيهدين** »

ومن هنا فإنه نقل المسألة من قانون الإنسان . . أو البشر . . إلى قانون الله سبحانه وتعالى . . فكأنه قد نقل القدرة من القدرة البشرية المحدودة . . إلى قدرة الله سبحانه وتعالى التى ليس لها حدود ولا قيود . . والتى تتم بكلمة كن . . ومادام قد نقل القدرة منه هو إلى قدرة الله سبحانه وتعالى فقد أصبحت هذه القدرة ينطبق عليها لفظ سبحان الله وليس كمثله شيء . . أى أنه لا عجب فيما سيحدث ولو خالف كل قوانين البشر . . لأن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . فأصبحت النجاة نابعة من قدرة الله وليس من قدرة البشر . . فقال الله سبحانه وتعالى له :

« **ان اضرب بعصاك البحر فانفلق** »

والمعروف أن الماء لا ينفلق لأن قوانين الماء هى الاستطراق . . أى لا يكون عاليا فى مكان ومنخفضا فى مكان آخر . . لابد أن يتساوى سطحه . . فإذا ضرب موسى بعصاه البحر فهو لا يستخدم قوانين الأرض . . ولا قوانين الماء . . ولا قدرات البشر . . لأنه رفع الأمر إلى الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا تكون القدرة والفعل لله فينشق البحر . وينجو موسى وقومه .

هذا هو معنى المعجزة فى ايجاز بالغ . . فالمعجزة هى خرق لنواميس

ما هى المعجزة ؟

الكون . . تتحدى . . ولا يستطيع أحد معارضتها . . والمعجزات نوعان . . معجزات أعطاها الله سبحانه وتعالى لرسله ليتحدوا بها قومهم . . ويثبتوا أنهم جاءوا بالهدى وبالرسالات من عند الله . . ويثبتوا الإيمان فى قلوب الناس . . ويبينوا لهم الطريق المستقيم المؤدى إلى الحياة السليمة . . وهى قوانين الله فى الأرض . . وليعرف الجميع أن هؤلاء رسل جاءوا من عند الله بمنهج وضعه الله للإنسان . . وهناك معجزات أخرى فى الكون . . لم يرد الله بها التحدى . . ولكنه أراد اثبات طلاقته فى الكون فى أنه هو الخالق . . وأنه هو الموجد للأسباب والمسببات . . وأنه يقول كن فيكون بلا مسببات . . مادام الأمر قد رفع إلى الله سبحانه وتعالى بعيدا عن قدرات البشر وقوتهم . .

معجزة القرآن مستمرة

على أنه يلاحظ أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين . معجزات الرسل خرقت قوانين الكون . . وتحدت وأثبتت أن الذى جاءت على يديه رسول صادق من الله . . ولكنها معجزات كونية من رآها فقد آمن بها . . ومن لم يرها صارت عنده خبرا إن شاء صدقه . . وإن شاء لم يصدقه . . ولو لم ترد فى القرآن لكان من الممكن أن يقال إنها لم تحدث . .

إذن فالمعجزة الكونية المحسة . . أى التى يحس بها الإنسان ويراها تقع مرة واحدة . . من رآها فقد آمن بها . . ومن لم يرها تصبح خبرا بعد ذلك . . على أن هذه المعجزات لا تتكرر أبدا . . هناك رأى يقول أن معجزات الرسل مع تقدم العلم يمكن أن يصل إليها البشر . . وهذا الرأى غير صحيح على الاطلاق . . فالمعجزة تبقى معجزة إلى يوم القيامة . . قد يقول واحد إننا قد نصل إلى قانون أو اختراع يشق الماء . . وحتى إن حدث هذا فإن المعجزة تبقى خالدة . . لأنه لا يمكن أن يأتى إنسان يضرب البحر بعصاه فينشق الماء إلا موسى عليه السلام . . وقد يقول بعض الناس أن عيسى عليه السلام كان يبرىء الأكمه والأبرص . . وأن هناك دواء الآن لبعض الداءات . . أو لكل هذه الداءات . . ولكننا نقول له أن المعجزة ستبقى معجزة . . فلن يستطيع بشر أن يشفى إنسانا مريضا بمجرد لمسه . . أو الاشارة إليه إلا عيسى عليه السلام . . قد يقول بعض الناس إننا نستطيع أن نذهب من مكة إلى بيت المقدس ونعود عدة مرات كل

يوم . . وهذا رد على معجزة الاسراء . . فنقول أبدا . . لن يستطيع إنسان أن يذهب بغير طائرة فى الجو إلا محمد عليه السلام . . فضلا عن الصعود إلى السماء السابعة . . ذلك أن المعجزة تظل خالدة فى نوعها وأدائها مهما طال الزمن . . وهى معجزة أساسها الاعجاز بالطريقة التى تمت بها . . ولا تصل إليها القوانين التى يكشف عنها الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر . . بل تظل المعجزة معجزة . .

على أننا إذا نظرنا إلى المعجزات السابقة وجدنا هذه المعجزات فعلا من أفعال الله . . وفعل الله من الممكن أن ينتهى بعد أن يفعله الله سبحانه وتعالى . . البحر انشق لموسى . . ثم عاد إلى طبيعته . . النار لم تحرق إبراهيم . . ولكنها عادت إلى خاصيتها فى الاحراق . . ولكن معجزة النبى صلى الله عليه وسلم صفة من صفات الله . . وهى كلامه . . والفعل باق بابقاء الفاعل له . . والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه . .

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى التى يؤيد بها رسله . . أو يريدها آية من آياته . . تختلف عن معجزات البشر فى أن الله سبحانه وتعالى يجعل من يقوم بالمعجزة يملك خاصية هذه المعجزة وقتها . . أى أن الله سبحانه وتعالى يجعل الضعيف قويا . . وغير القادر قادرا . . والذى لا يستطيع شيئا يستطيع أن يفعله . . فمعجزة عام الفيل مثلا التى أرسل فيها الله سبحانه وتعالى طيرا أبابيل . . أفنت جيش أبرهه عندما جاء ليحطم الكعبة . . جعل الله المعجزة فى أن الطير الضعيف يستطيع أن يهزم فيلا جبارا قويا . . ويستطيع أن يفنى جيشا من أقوى جيوش العالم . . إن لم يكن أقواها فى ذلك الوقت . . ولقد كانت المعجزة فيها قدرة هائلة حتى انها هزت نفوس بعض المؤمنين الذين لم يروها . . أو لم يشهدوها . . وجاءوا بعد عصر النبوة . . ولقد أثير حول هذه المعجزات حديث طويل فى أنه كيف تستطيع الطير وهى تمسك بحجارة صغيرة جدا أن تفنى جيشا من الأفيال . . ولو هدمت فوقه عمارة لخرج سالما معافى . . ووجد بعض العلماء فى هذا الكلام تجاوزا لحدود العقل . . فبدأوا يحاولون تخريجها تخريجا عقليا بأن يقولوا أن هذه الطير كانت تحمل جراثيم فتكت بهذه الفيلة إلى آخر هذا الكلام الذى يحاولون به تبرير المعجزة . والمعجزة لا تبرر أبدا لماذا ؟ لأنها لا تخضع لقوانين البشر . . فالفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . ومعجزة الفيل

ما هى المعجزة ؟

حدثت كما رواها القرآن تماما من ناحية الطير .. ومن ناحية الحجارة .. ذلك أن هذه المعجزة وقعت فى العام الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم .. ورسول الله بعث فى الأربعين من عمره .. أى أنه عندما نزلت هذه الآية كان هناك من شهدوا عام الفيل .. ممن أعمارهم قد بلغت الخامسة والخمسين .. والستين .. والخامسة والستين .. والسبعين .. وما فوق ذلك .. فلو أن القرآن جاء برواية منافية أو مخالفة لما شهدوه لقالوا أن هذا لم يحدث .. وأن طيرا لم تأت .. وأن حجارة لم تستخدم .. ولكن كون القرآن جاء بهذا .. وهناك شهود .. وشهود من الكفار الذين يهمهم الطعن فى الدين .. ويهمهم أن يشككوا فيه .. ولم يستطيعوا أن يجادلوا فى هذه الآية .. إذن فالطير قد جاءت .. والحجارة قد استخدمت .. وهذه معجزة من معجزات الله تحمل سمة المعجزات وهى أن الله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يحقق المعجزة يعطى القوة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها .. فهنا أعطى القوة للطير لتغلب الفيل .. عكس المنطق تماما .. وأعطى القدرة لموسى فغلب السحرة وأعطاه قدرة شق البحر فضرب الأرض بعصاه فشق البحر .. وأعطى لعيسى عليه السلام قدرة شفاء المرضى واحياء الموتى .. كل هذا بإذن الله .. وهنا الاختلاف بين الاعجاز الإلهى .. وأى اعجاز آخر .. فأنت حين تريد أن تجعل رجلا ضعيفا يحمل حملا ثقيلا لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل ولكنك تستطيع أن تحمله عنه .. وأى اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يعطى الإنسان قدرة خارقة ولكنه يساعده باستخدام شيء خارجى .. أما الله سبحانه وتعالى .. فإنه هو وحده المستطيع أن يجعل الضعيف قويا .. والعاجز قادرا .. والقوى لا حول له ولا قوة .. ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوى .. فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله سبحانه وتعالى .. الله أعطى لإبراهيم مثلا قدرة الخلق حينما طلب منه أن يأتى بالطير ويقطعها .. ثم يضع على كل جبل جزءا ثم يدعوها فتأتى له سعيا .. أى أن إبراهيم هو الذى دعا .. والله هو الذى أذن .. وشاء ..

على أن معجزة القرآن تختلف فى أوجه كثيرة عن المعجزات الأخرى .. وهذا ما سنبينه فى الفصل القادم ..



الفصل الثاني

معجزة القرآن وكيف تختلف

معجزة القرآن وكيف تختلف

معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين فى كثير من زوايا الاعجاز . . وفى القرآن اعجاز لا يتنبه إليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون وأسراره . . حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه اعجاز أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الاعجاز . . أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال . . بل ان اعجاز القرآن موجود أحيانا فى حرف . . حرف من القرآن يحمل اعجازا رهيبا . . وتلك حقيقة سنتناولها بالتفصيل فى الفصول القادمة . . ولكن الذى يجب أن نعرفه الآن . . أن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق . . ذلك أن القرآن للعالمين . . أى الدنيا كلها . . لا يقتصر على أمة بعينها . . وإنما هو الدين الكامل لكل البشر . . ومن هنا فإنه يجب أن يكون له عطاء لكل جيل . . وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الاعجازى فى قرن من الزمان مثلا لاستقبل القرون الأخرى بلا عطاء . . وبذلك يكون قد جمد . . والقرآن متجدد لا يجمد أبدا . . سخى يعطى دائما . . قادر على العطاء لكل جيل بما يختلف عن الجيل الذى قبله . . وبنفس الآية . . أى أن هناك آيات من القرآن تعطينا الآن عمقا جديدا فى معناها . . ذلك العمق لم يكن أحد يصل إليه بالفهم الدقيق فى أول وقت نزول القرآن . .

ولكى تكون هذه النقطة واضحة يجب أن نفرق بين شيئين اثنين فى القرآن الكريم . . الأحكام الخاصة بمنهج العبادة . . أو ما يحدده الله للبشر ليقوموا بعبادته بالطريقة التى حددها الله سبحانه وتعالى ليعبد فى الأرض . . كلمة افعل . . ولا تفعل . . هذا حلال . . وهذا حرام . . هذه الأحكام التكليفية لا تغيير فيها ولا تبديل . . وإنما كما فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أو كما فسرت فى عهد نزول القرآن . . الصلاة خمس مرات . . لا اجتهاد فى هذا . . شهادة أن لا إله إلا الله . . الزكاة . . ما حرم على الإنسان وما أحل له . . الزواج والطلاق . . كل ما شرعه الله من أحكام بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وفسره . . ولا اجتهاد فيه . . لا يستطيع أحد أن يأتى ويقول لنا أن الصلوات أربع مرات فى اليوم . . ويفسر هذا بأى وجه من التفسير . . هذا غير مقبول . . وليس مجال المناقشة . . افعل ولا تفعل . . الأحكام التى إذا فعلتها نجوت . . وإذا لم تفعلها عوقبت . . هذه لا تبديل فيها ولا اجتهاد . . لأن الله

سبحانه وتعالى هو الذى يحدد لنا كيف نعبده . . وهو الذى يختار لنا الطريق . .

نأتى بعد ذلك إلى الأشياء المتصلة بقوانين الكون والخلق . . تلك الأشياء التى لم يكن للعقل البشرى الاستعداد العلمى وقت نزولها ليفهمها تماما . . مثلا كروية الأرض . . احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن . . الغلاف الجوى المحيط بالأرض احدى الحقائق التى تحدث عنها القرآن . . علم الأجنة تناوله القرآن . . دوران الأرض حول نفسها . . الزمن . . ونسبية الزمن . . وعدد من حقائق الكون الأساسية . . نجد أن الآيات التى تتناول هذه الأشياء مرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عليها مرورا وترك للعقل فى كل جيل أن يأخذ قدر حجمه . . والمعجزة هنا فى القرآن انه يعطى لكل عقل قدر حجمه . . ويعطى لكل عقل ما يعجبه ويرضيه . . فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه . . ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه . . والمتبحر فى العلم يجد فى القرآن اعجازا يرضيه . .

هذه واحدة . . من اعجاز القرآن الكريم . . انه يقدم لكل نفس باستخدام الآيات والألفاظ التى تؤدى إلى المعنى . . فإذا ما كشف الله للبشر عن سر من أسرار كونه . . ورجعنا إلى الآية نجدها تؤدى نفس المعنى . .

رب المشـــارق والمغـــارب .

ولنضرب مثلا يوضح ذلك . . يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . .

« رب المشرق والمغرب »

« رب المشرقين ورب المغربين »

« رب المشارق والمغارب »

لو أخذنا كل آية من هذه الآيات وقت نزول القرآن الكريم على حجم تفكير العقل البشرى فى ذلك الوقت . . نجد أن مفهوم المشرق هو جهة شروق الشمس . . ومفهوم المغرب هو جهة غروب الشمس . . فعندما يقول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب . . فليس هناك تعارض بين العقل والآية فى ذلك . . نأتى بعد ذلك للآية الكريمة « رب المشرقين ورب المغربين » نقول إذا كان المشرق هو جهة الشرق . . فإن رب المشرقين معناها أنها تجمع بين عمومية الجهة وهى الشرق . . وبين المكان المحدد لشروق الشمس . . بمعنى أنك تقول

هذا هو الشرق .. وهذا هو الغرب .. وتشير بيدك إلى جهة المشرق أو المغرب .. فإذا أردت أن تحدد مكان شروق الشمس .. فإنك تقول أن الشمس تشرق من هنا .. وتحدد المكان بالضبط .. هذا هو التفسير فى وقت نزول الآية .. ثم نأتى بعد ذلك إلى « رب المشارق والمغارب » .. التفسير وقت نزول الآية هو أن كل بلد له مشرق وله مغرب .. ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى هو رب المشارق كلها والمغارب كلها ..

فإذا جئنا الى هذه الآيات اليوم لوجدنا تفسيرها يختلف .. رب المشرق والمغرب .. هذه قالوا عنها عمومية .. ولكن الله سبحانه وتعالى قرن كلمة المشرق بالمغرب لأنه لا يوجد مشرق بدون مغرب .. كروية الأرض تحتم هذا .. ففى الوقت الذى تغرب فيه الشمس على جهة .. فى نفس الوقت .. وفى نفس اللحظة تشرق على جهة أخرى .. إذن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. ولم يقل رب المشرق ورب المغرب .. أو لله المشرق ، أو لله المغرب .. حيث كان المعتقد وقت نزول القرآن أنهما جهتان مختلفتان تماما .. متقابلتان بالنسبة للعين المجردة .. ولكن قول الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب .. معناها أن الشروق والغروب يتم فى وقت واحد .. أى أن الشمس تغرب على بلد فى نفس الوقت تشرق فيه على بلد آخر ..

نأتى بعد ذلك للآية الكريمة :

« رب المشرقين ورب المغربين »

لماذا قال المشرقين بالذات والمغربين .. إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد انها مقسمة إلى جزءين .. نصف مضىء .. ونصف معتم .. والنصف المضىء له مشرق ومغرب .. بينما النصف المعتم يسبح فى ظلام دامس ... فإذا استدارت الكرة تماما يواجه النصف المظلم الشمس والنصف المضىء يصبح ظلاما .. أصبح نصف الكرة الذى كان مظلما له مشرق .. ونصف الكرة الذى كان مضيئا يسبح فى ظلام .. إذن فالكرة الأرضية فى عموميتها لها مشرقان .. مشرق تضىء منه الشمس نصف الكرة ومغرب .. ثم تستدير الكرة كلها .. فيأتى نصف الكرة الآخر فيكون له مشرق ومغرب .. إذن فآية رب المشرقين ورب المغربين تعرض لنا بأن نصف الكرة يكون ظلاما ليس له مشرق ولا مغرب .. والنصف الآخر يكون مضيئا له مشرق ومغرب .. وعندما ينعكس الوضع يصبح هذا

النصف له مشرق ومغرب . . وهذا النصف لا مشرق له ولا مغرب . . وهكذا فى عمومية الكرة الأرضية . . هناك مشرقان ومغربان . .

فإذا انتقلنا إلى رب المشارق والمغارب . . نجد أنه بعد أن تقدم علم الفلك لا يوجد مشرق واحد . . ومغرب واحد لأى دولة فى العالم . . وإنما هى مشارق ومغارب . .

إذن فزاوية الشروق تتغير . وزاوية الغروب تتغير . . ولكن الحس لا يدرك ذلك . . بل إنه إذا نظرنا إلى الكرة الأرضية نجد أنه فى كل جزء من الثانية مشرق تشرق الشمس فيه على مدينة وتغيب عن مدينة أخرى . . أى أن هناك ملايين المشارق والمغارب لكل بقعة من الأرض . . المشرق والمغرب للبلدة الواحدة لا يتكرر طوال أيام السنة . . لا تشرق الشمس على بلدة من نفس مكانها الذى أشرقت منه فى الأمس . . أو تغرب على بلد من نفس مكانها الذى غربت منه بالأمس . . وإن كانت جهة الشرق واحدة . . إلا أن المشرق تختلف زاويته كل يوم . . وكذلك المغرب . . وتختلف فى فصول السنة . . وفى أيام الصيف عن الشتاء عن الخريف عن الربيع . . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا من حركة دوران الأرض حول الشمس مرة كل عام . . فإن هذه الحركة هى التى تجعل لكل يوم مشرقا ومغربا بزاوية مختلفة . . بل بتوقيت مختلف عن اليوم الآخر . . وأبسط شيء لتدرك هذا بدلا من الدخول فى التعقيدات الفلكية هو صيام شهر رمضان . . ففى كل يوم تفطر فى مغرب مختلف عن المغرب الآخر فى الوقت . . وكذلك تمتنع عن الطعام فى مشرق مختلف عن المشرق الآخر فى الوقت . . وأوقات الصلاة تختلف كل يوم من أيام العام . . تبعا لحركة الأرض حول الشمس . .

واختلاف المشارق والمغارب يبين ـ بخلاف أن الأرض تدور حول الشمس ـ إن الأرض كروية . . فلو كانت الأرض مسطحة . . كان لابد أن تطلع الشمس من مشرق واحد . . وتغيب من مغرب واحد . . حينئذ لا يكون هناك مشارق ومغارب . . ولكن كونها كروية . . وكونها تدور حول نفسها وحول الشمس هو الذى يجعل هناك مشارق ومغارب . .

والذى أريد أن أقوله أن عطاء القرآن فى الأولى ، رب المشرق والمغرب لم يلغ عطاءه فى الثانية وهو رب المشرقين ورب المغربين . . وهو لا يلغى عطاءه فى

الثالثة وهو رب المشارق والمغارب ..

بل أن التقدم العلمى الذى غير كثيرا من مفاهيم الكون لم يستطع أن يغير معنى الآيات الكريمة .. بل انسجم معها .. ويحضرنى قول قرأته فى أحد المخطوطات القديمة يقول كاتبه « يا زمن وفيك كل الزمن » ومعنى هذا القول ان الزمن نسبى فى الكون . فمثلا عندما أؤدى أنا الظهر هناك أناس فى مكان آخر يصلون العصر .. وأناس فى مكان ثالث يصلون المغرب .. وأناس فى مكان رابع يصلون العشاء .. وأناس فى مكان خامس يصلون الفجر .. أى أنه فى الوقت الواحد يؤذن لله على ظهر الأرض الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر .. إذن فالله مذكور فى كل زمن وبجميع أوقات الزمن ..

هذه آية من آيات القرآن الكريم اتضحت دقة معناها عندما تقدم العلم .. كان لها عطاء وقت نزول القرآن .. ولها عطاء مختلف الآن .. وربما يكون لها عطاء آخر فى الأزمنة القادمة بعد أن يتقدم العلم .. والاعجاز هنا أن القرآن يعطى لكل جيل عطاءه .. ويعطى لكل عقل حاجته دون أن يتناقض مع الحقيقة العلمية أو يتصادم مع حقائق الكون .. فهو متجدد العطاء دائما .. وحقائق الكون لا يمكن أن تتصادم أبدا مع القرآن .. لأن الله هو الفاعل .. والله هو الخالق .. والله هو القائل ..

هذه احدى نواحى اختلاف القرآن الكريم فى معجزاته عن الكتب السماوية الأخرى .. وهو ما سأتحدث عنه بالتفصيل فى الفصول القادمة ..

حفظ القرآن وتطبيق القرآن

على أن هناك ناحية ثانية وهى أن معجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل اختلافا آخر .. فكل رسول كانت له معجزة وكتاب ومنهج .. معجزة موسى العصا .. ومنهجه التوراه .. معجزة عيسى الطب .. ومنهجه الانجيل .. لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزته هى عين منهجه .. ليظل المنهج محروسا بالمعجزة وتظل المعجزة محروسة بالمنهج .. وهنا فقد كانت الكتب السابقة للقرآن داخلة فى نطاق التكليف .. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يكلف عباده بالمحافظة على هذه الكتب ..

ماذا حدث عندما كلف الله عباده بالمحافظة على هذه الكتب ؟

نسوا حظا مما ذكروا به . . أى أنهم نسوا ما ذكرهم الله سبحانه وتعالى به . . وما لم ينسوه حرفوه . . لووا ألسنتهم به . . وما لم يلووا ألسنتهم به زادوا عليه وجاءوا بأشياء من عندهم وقالوا إنها من عند الله ليشتروا بها ثمنا قليلا . . إذن فتكليف الله سبحانه وتعالى لعباده أن يحافظوا على الكتب السابقة ، أدخلوا فيها هوى النفس وأخضعوها للتحريف . . لكن عندما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن قال :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

لماذا . . أولا لأن القرآن معجزة . . وكونه معجزة لابد أن يبقى بهذا النص وإلا ضاع الاعجاز . . وثانيا لأن الله جرب عباده فى الحفاظ على الكتب السابقة فلم يحفظوها وحرفوها . .

وهنا نلاحظ شيئا هاما يبين لنا أن معجزة القرآن محفوظة من الله سبحانه وتعالى . . لو أخذنا خطين . . خط تطبيق القرآن والعمل بتعاليمه . . وخط المحافظة على القرآن . . نرى أن تطبيق القرآن والعمل به كلما مر الزمن قل وضعف . . أما المحافظة على القرآن . . فكلما مر الزمن زاد بشكل عجيب . . حتى انك ترى القرآن الآن فى كل مكتب . . وفى السيارات . . وعلى صدور السيدات . . وفى المنازل . . وفى كل مكان . . وتجد تجميلا فى القرآن من أناس لا يؤمنون به . . فترى رجلا ألمانيا . . مثلا يكتب القرآن كله فى صفحة واحدة . . ويخرجه بشكل جميل وهو ربما لم يقرأ القرآن فى حياته . . وتجد اليابان مثلا تتفنن فى طبع المصاحف الجميلة ، فإذا سألت لماذا لا يفعلون ذلك فى الكتب الأخرى ؟ نقول لك إنهم مسخرون لذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظ القرآن . . وكل هذا الحفظ الذى تراه هو من عمل الله . . وليس من عمل الإنسان . . وأنت حين ترى القرآن فى مكتب أو سيارة أو منزل وتسأل صاحب المنزل أو السيارة . . أو المكتب هل تعمل بهذا القرآن ؟ هل تؤدى الصلاة كما يجب ؟ يقول لك لا ؟ إذن لماذا تحتفظ بالقرآن فى منزلك دون أن تعمل به ؟ فلا يستطيع أن يجيب أو يقول لك إنه بركة . .

ومن هنا فإن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك فى الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم . . أحيانا تجد غير المسلم يحافظ على القرآن ويحمله . . وأحيانا تجد من لا يطبق القرآن يقتنى أكبر عدد من المصاحف . .

معجزة القرآن وكيف تختلف

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذى يحفظ القرآن هو الله . . وإنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه ، لأن العباد هم المكلفون بالعمل . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظه . .

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية وهى أن القرآن نزل رحمة للعالمين أو للعالم أجمع . . وهذه احدى معجزات القرآن . . فقد كان الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل المختلفة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الداءات وتهدى الناس إلى سبيل الله . . وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية . . لذلك اقتضى الأمر أن يأتى رسول ليعالج داءات هذا المجتمع . . بل إن الله سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول فى وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة . فإبراهيم عليه السلام . . ولوط أرسلا فى وقت واحد . . لماذا ؟ لأن المجتمعات فى ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئا ، وذلك بسبب سوء المواصلات وعدم وجود التقدم العلمى الذى يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات . . بل إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتفنى دون أن يدرى مجتمع منها عن الآخر شيئا . . كما أن الداءات فى هذه المجتمعات كانت مختلفة . . فمنهم من كان لا يوفى الكيل والميزان . . ومنهم من كان يعبد الأصنام . . ومنهم من كان يفسد فى الأرض ، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعا واحدا . . يحدث شىء فى أمريكا . . وبعد دقائق تجده فى مصر . ويحدث شىء فى اليابان . . وبعد ساعات تجده فى أوربا . . إذن الاتصالات أصبحت سهلة وميسرة . . والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة . . ومع تعدد الاتصالات وسهولتها توحدت الداءات . . فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى . . فكان لابد من وحدة العلاج . . فمثلا الدعاية للكفر والشيوعية داء استشرى فى كل أنحاء العالم . . ولم يترك دولة دون أخرى . . النظام المالى والربا تجده فى الدنيا كلها . . أكل المال بالباطل والسرقة داء استشرى فى معظم دول العالم . . إذن الداءات أصبحت واحدة . . وهذا يقتضى وحدة العلاج . . ومن هنا جاء الدين الإسلامى للعالمين . . أى للدنيا كلها . . لأن وحدة الداء تقتضى وحدة العلاج . . وهذا من معجزات القرآن الكريم . . فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء فسبق بذلك علم البشر . .

القرآن حدد مصدر العلم للبشر

فرق آخر بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى ، هو أنه حدد مصدر العلم البشرى . . وروى لنا كيف يتعلم الإنسان . . فقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . .

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ومن هنا حدد مدخل العلم إلى البشر . . فأنت حين تريد أن تعلم طفلك . . تبدأ بتعليمه الأسماء . . فاللغة هى وسيلة للتفاهم بين البشر . . فهذا الإنسان الذى خلقه الله . . والذى عمر الأرض . . وأقام كل ما نشاهده من مدنية وحضارة . . كان يجب أن تكون هناك وسيلة للتفاهم بين البشر . . فبدون وجود وسيلة للتفاهم لا يمكن أن تقوم حضارة أو يتم تعايش حقيقى . . أو ينتقل العلم من جيل إلى جيل ليتقدم كل جيل ويأخذ حظه من المعرفة عن الجيل الذى سبقه . . ويضيف إليه . . وكانت هذه الوسيلة هى اللغة أو الكلمة التى تسمعها الآذن ويتكلم بها اللسان . . وإذا ولد الإنسان أصم لا يسمع فإنه لا ينطق . . وأمامنا الأمثلة فى العالم أجمع . . على أن أى إنسان لا يسمع لا يستطيع أن ينطق . .

إذن فليست اللغة هى فصيلة دم ولا بيئة . . ولا جنسا . . ولا وراثة . . ولا تعتمد على بشر معين . . وإنما ما نسمعه نتكلم به . . فلو إننى أتيت بإنسان فرنسى أو هولندى . . أو أفريقى . . أو من أى جنسية فى العالم . . أتيت به كطفل رضيع . . وتركته فى بيئة لا تتكلم إلا اللغة العربية . . فإنه سيتكلم لغة البيئة التى عاشها . . بصرف النظر عن جنسيته . . ولو إننى أتيت بإنسان عربى ووضعته فى بيئة لا تتكلم العربية لصعب عليه بعد ذلك أن يتحدث باللغة العربية . .

إذن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . . فلا جدوى من النطق بألفاظ إلا إذا كانت معانيها قد شرحت أولا والأصل أن يوجد الشيء ثم يوضع له اسم . . فأنت مثلا لا تستطيع أن تطلق لقب كوب إلا إذا وجد الكوب أولا . . وإلا فالكلمة ليس لها معنى . .

نعود إلى معجزة القرآن . . والقرآن كلام الله . . والكلام هو أساس الحضارة . . وأساس العلم الذى نزل من الله إلى الإنسان . . فالله سبحانه

وتعالى يقول فى كتابه العزيز . .

« وعلم آدم الأسماء كلها »

ونحن الآن حين نريد أن نعلم طفلا أن يتكلم فلابد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولا . . ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث . . بل نبدأ ونقول له هذا قلم . . وهذه كراسة . . وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذا طعام . . وهذا طريق . . وهذا نور . . وهذا ظلام . .

إذن نحن نعلمه الأسماء أولا . . فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم ذلك أننا لا نعلم الطفل الأسماء فى المدرسة فقط . . بل نحن نعلمه بالفطرة . . الطفل المتعلم والجاهل يتعلم الأسماء . . فالأم تعلم الطفل الذى لا يذهب إلى المدرسة . . والمدرسة تعلم الطفل الذى يذهب إلى المدرسة . . ولكن الاثنين لكى يستطيعا التفاهم فى الحياة يجب أن يتعلما الأسماء أولا . . فنجد أن الطفل الجاهل والمتعلم يعلم معنى الأسماء . . فهو يعلم معنى كلمة طريق . . أو كوب . . أو أسد . . أو نعامة أو إلى آخره . . لا فرق بين جاهل ومتعلم . . لأن هذا هو مدخل التفاهم بين البشر . . وأساس هذا التفاهم كما وضعه الله سبحانه وتعالى حين « علم آدم الأسماء » . . فأصبحت هى الأساس فى العالم أجمع . . والآن بعد أربعة عشر قرنا نجد أن أساس العلم فى الدول المتقدمة . . والدول غير المتقدمة هو الأسماء . . بل ان الدول المتقدمة لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم فى الحياة . . تأتى بصور لتعلم الأطفال الأسماء دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية . . ويستطيع الطفل أن يتعلم أى شىء آخر . . بعد ذلك . .

القرآن منهج للحياة

معجزة القرآن تختلف أيضا عن معجزات الرسل الأخرى . . إنه لا توجد قضية تمس حياة البشر إلا ويوجد فى منهج الله سبحانه وتعالى ما يعالج هذه القضية . . نحن نقول يعالج . . لأن التشريعات عندما تأتى تعالج واقعا موجودا فى المجتمع وفسادا انتشر . . ومن هنا فإن القرآن قد تعرض لقضايا الكون جميعها وأوجد لها العلاج ، وأوجد لها الشفاء والذى يدعيه البعض أن منهج الله لا يعالج قضايا العصر . . دليل على أنهم لم يدرسوا هذا المنهج . . ولم يتعمقوا

فيه .. فما من قضية أساسية فى المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم .. ولكن هنا يقع بعض اللبس .. فقد يقول بعض الناس : إن القرآن مثلا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختراعات الحديثة إلى آخر هذا الكلام .. والذى يجب أن يعرفه الناس جميعا أن القرآن هو منهج عبادة .. ولكنه حينما يأتى ليعالج ، لا يعالج الخصوصيات .. وإنما يضع المبدأ .. فهو حين يطلب منا أن ننقب فى الأرض ونبحث عن آيات الله .. وأن نتعلم فى أمور الدنيا .. وأن نعمل وننتج .. ونعمر الأرض إنما هو يطلب منا لو اتبعناه لاستطعنا أن نصل إلى أكبر تقدم يمكن أن يحققه بشر .. إذن المبدأ موجود فى ضرورة البحث فى الكون .. ومواصلة البحث والدراسة .. ومن يبحث ويدرس فى قلبه إيمان بالله .. وشعور بعظمة الله وقدرته يستطيع أن يحقق الكثير .. والكثير جدا .. المبدأ هو أن نزرع ونعمر ونكشف عن آيات الله فيها .. فإذا تقاعسنا عن هذا كله .. وإذا لم نفعل ذلك .. فلا يمكن أن نستغرب .. أو أن نتعجب لأن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا .. فنحن تركنا منهج الله فى العمل .. فلابد أن يتركنا قانون الله فى النتيجة .. وهذا هو الجمال فى الحياة .. فلا يمكن أبدا أن يكون هناك جمال فى الحياة .. إذا كان الطالب المجد .. والطالب الذى لا يقرأ كتابا فى حياته كلاهما ينجح .. ولا يمكن أن يكون هناك جمال فى الحياة إذا كان الإنسان الذى يحرث الأرض ويعتنى بها ويسقيها ويعالجها من الآفات .. والإنسان الذى يترك الأرض ولا يعمل فيها شيئا بل يهملها تماما .. كلاهما يجنى نفس المحصول ، إذا حدث هذا فإن الجمال فى الحياة يختفى ويصبح كل شىء قبيحا فلا تجد طالبا ينبغ .. ولا عالما يخترع .. ولا إنسانا يضيف إلى الحياة شيئا .. ولا مدينة تبنى مادام من يعمل ومن لا يعمل سيحصلان على نفس النتيجة .. ويحققان نفس الشىء .. ولكن الجمال فى الحياة فى تناسب النتيجة مع العمل .. وعن هذا يتحدث القرآن فى الدنيا والآخرة ..

وبذلك نكون قد عددنا أوجه الخلاف فى معجزة القرآن عن معجزات الرسل الأخرى .. فالقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق .. والقرآن للعالمين ، أى للدنيا كلها .. وليس لقوم محددين والقرآن يحوى الحقائق الأساسية فى الكون كله .. ويأتى بها واضحة فى ألفاظ تنسجم مع قدرة العقول التى عاشت وقت نزول القرآن .. وقدرة العقول فى كل جيل بعد ذلك ..

فالقرآن يعطى لكل عقل حجمه . .

ومعجزة القرآن تختلف أيضا فى أن الله هو الذى يحفظ كتابه ، أما معجزات الرسل السابقة . . فقد كلف الله البشر بحفظها فحرفوها ونسوا ما ذكروا به . . وأضافوا إليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن من أن يحدث فيه أى تبديل أو تغيير . . كما أن القرآن كلام الله الذى بدأه مع آدم . . والذى هو أساس العلم البشرى كله . .

ولكن القرآن جاء يتحدى العرب فى اللغة . . وفى البلاغة . وذلك ما سنتحدث عنه فى الفصل القادم . .



الفصل الثالث

المعجزة اللغوية في القرآن الكريم

المعجزة اللغوية فى القرآن الكريم

القرآن كلام الله سبحانه وتعالى . . ومادام كلام الله فيجب أن يكون معجزا . . لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله ، العرب ، وهم أساتذة البلاغة فى ذلك الوقت . . وبهتوا لما فيه من اعجاز . . ومن بلاغة . . وقال بعض العرب فى ذلك الوقت ان أساتذة البلاغة قادرون على أن يأتوا بمثل هذا الأسلوب . . ولكنهم صرفوا من الله على أن يأتوا به . . وهذا القول هو اثبات بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . . فلو أنه ليس كلام الله لما صرف الله العرب عنه أن يأتوا بمثله . . وأثبتوا أن اعجاز القرآن الكريم موجود . . ولكنهم جعلوا هذا الاعجاز بالقدرة . . أى أن قدرة الله سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثله . . وكان هدفهم أن ينفوا الاعجاز عن ذاتية القرآن . . فى أن بشرا لا يستطيع أن يأتى بمثله . وبهذا النفى الذى أرادوه أعطوا للقرآن معجزة أخرى ، وهى معجزة القدرة . .

على أن اعجاز القرآن يجب أن ننظر إليه من الدائرة الأولى التى استقبلته . . وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فالمنطقى والطبيعى مادام القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، يكون أبلغ الكلام . . ويكون فيه معجزة . . وبلاغة القرآن لها عناصر لابد أن تتوافر فيها . . فالبلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ومقتضى حال المخاطب بالذات . . ولكن العجيب أن القرآن فى هذه الناحية ، وهى مطابقة الكلام بمقتضى الحال . . فيه معجزة كبرى . . فأحوال الناس متعددة . . متغيرة . . وأنت حين تخاطب إنسانا إذا لم تعرف ما فى نفسه . . فإنك لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه . . ومخاطبتك لرئيس الدولة مثلا . . أو الأمير . . تختلف فى أسلوبها وطريقتها عن مخاطبتك لخادمك أو من يعمل عندك . . تختلف فى أسلوبها عن مخاطبتك لزوجتك وأولادك . . وكل ذلك يختلف عن مخاطبتك لرئيسك فى العمل . . أو لمرؤوسيك . . إلى آخر النوعيات التى تخاطبها . . بل إن الأمر يمتد أكثر من ذلك إلى الحالة النفسية التى فيها المخاطب . . فإنسان غاضب فى قمة غضبه لا يمكن أن تخاطبه بنفس الأسلوب . . وبنفس الطريقة التى تخاطب هذا الشخص ذاته بها عندما يكون فى حالة نفسية سعيدة . . هذا له كلام . . وهذا له كلام آخر . . مخاطبة الإنسان

الغاضب لها طريقة .. ومخاطبة الإنسان الذى هو فى حالة نفسية سعيدة لها طريقة أخرى .. ولكن اعجاز القرآن يأتى فى أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا .. الغنى منهم والفقير .. التعيس منهم والسعيد .. الخادم منهم والسيد .. إنه يخاطبهم جميعا .. ويخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها .. فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه .. والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز فى داخل نفسه .. وزادت سعادته .. والأمير .. والخادم .. والمثقف .. وغير المتعلم .. وهؤلاء جميعا الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أى مستوى .. ولا أن تتوحد عقلياتهم .. بحيث يكلمهم متحدث واحد .. وفى نفس الموضوع فيفهمونه .. تراهم فى الصلاة .. وقد اجتمعوا فى المسجد .. وجلسوا معا .. ويتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعا .. رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية .. والحالة الاجتماعية وكل شىء اختلافا بينا .. ومن هنا كان الاعجاز الأول فى بلاغة القرآن .. انه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين .. من أجناس مختلفة .. وشعوب مختلفة .. وثقافات مختلفة .. ولغات مختلفة .. وبيئات مختلفة .. لم يخاطبهم بما يهز وجدانهم ومشاعرهم .. ويؤثر فى عواطفهم .. فإذا سألت أحدهم ما الذى أعجبك فى القرآن .. فإنه غالبا لا يستطيع أن يعطيك جوابا شافيا .. وإنما سيعطيك كل واحد منهم جوابا مختلفا .. وذلك يدل على أن الاعجاز واصل إلى قلبه .. متغلغل فى نفسه .. بما لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل .. أى أن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه .. وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا تتأثر بأسلوب القرآن .. ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التى أعطت القرآن هذه البلاغة .. ثم بعد ذلك لا نجد جوابا شافيا .. إذ إن الله سبحانه وتعالى يخاطب فى النفس البشرية ملكات هو خالقها .. وإن هذه الملكات تتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى .. وتهتز له دون فارق من فوارق الدنيا .. أو من الفوارق التى وضعتها الحياة الدنيا بين الناس .. ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن .. ولو كانوا غير مؤمنين .. فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هزا عنيفا .. ويجعلها تتأثر به .. حتى أن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق . وإنه يعلو ولا يعلى

عليه .

وهكذا تأثر به دون إيمان . . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم باسلام أخته وزوجها كان ناويا الشر . . وما إن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه وانشرح صدره للإسلام . . لماذا ؟ لأن كلام الله سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة فى نفسه . . وهو فى غاية الضيق والحمق . . وينوى الشر . . وخاطب هذه النفس ، نفس عمر بن الخطاب ، وهى فى هذه الحالة من الغضب الشديد بنفس الكلام الذى يخاطب به المؤمنين ، وهم فى حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى الله سبحانه وتعالى . . وإذا بالآيات ، نفس الآيات التى تدخل السعادة على نفس قريبة من الله . . قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت . . وأصابت فى نفس الوقت نفوسا سعيدة وهى نفوس المؤمنين . . فجعلتها تزداد سعادة . . وتنشرح للإسلام . . ونفسا غاضبة تنوى الشر لم تصل إلى الإيمان بعد . . فهدأتها وجعلتها سعيدة . . وانشرح الصدر للإيمان . . مع أن الكلام واحد . . وفرق كبير بين حالة المخاطب فى الحالتين . . ومع ذلك ولأن القائل هو الله سبحانه وتعالى . . وهو العالم بالنفس البشرية التى خلقها . . فقد كان كلامه مناسبا لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات . . مع أنه نفس الكلام . .

إذن فهناك فى النفس ملكات خفية عن الإنسان . . لا يعرف سرها إلا الله سبحانه وتعالى . . ويقوم الله بمخاطبة البشر على اختلاف أحوالهم . . فتهتز هذه الملكات . . وتتأثر وينسجم الإنسان معها دون أن يعرف السر . .

قالوا ساحر . . وقالوا مفتر

إذا وصلنا إلى ذلك . . نكون قد تحدثنا عن أول شروط البلاغة . . وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ونجد أن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة فى أنه مطابق لكل أحوال البشر . . على اختلاف ظروفهم . . ولذلك تحير الكفار فى هذا الاعجاز فى مخاطبة البشر جميعا . . وفى هذا الاعجاز الذى تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه . . فقالوا ساحر . . سحر الناس بكلامه . . لأنه لا يمكن لبشر عادى أيا كان أن يأتى بكلام يطابق كل الأحوال . . ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر . . وقلت له انظم قصيدة . . أو أعد

كلاما لتلقيه أمام الناس . . فهو لا يستطيع أن يعد كلاما يقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم . . وفى نفس الوقت يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين . . ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال . . ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميرا . . ثم يقول نفس القصيدة فى خادم الأمير . . ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال . . ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم . . والعبد والسيد . . والرجل العادى والحاكم . . ومن هنا كانت المطابقة معجزة . . فقالوا ساحر . . فليأتوا بسحر مثله . . ثم هل للمسحور خيار أو ارادة مع الساحر . . اذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به . . فلماذا لم يسحركم أنتم . . ان بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين ، دليل على أنه ليس ساحرا . . وإلا لو كان ساحرا لكان قد سحركم جميعا . . ولم يسلب بعض الناس ارادتهم . . ويترك البعض الآخر على ارادته . .

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى . . قالوا مفتر . . نقول لهم مادمتم قد فهمتم أنه مفتر . . فافتروا أنتم إن كنت تستطيعون . . بل إنكم أنتم أيها الكفار أقدر منه على الافتراء . . فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس له دراية بفن الكلام . . والخطب والشعر والأدب . . بل إنه لا يقرأ ولا يكتب . . ولا يقول الشعر . . أما أنتم فأساتذة الكلام والبلاغة ، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة . . ولم يقل شعرا أو أدبا . . قد قال هذا الكلام . . وأنتم تقولون انه مفتر . . فوسائل الافتراء تملكون أسبابها أكثر من محمد عليه الصلاة والسلام . . عندكم الشعراء والأدباء . . فافتروا مثله . . وأداة الافتراء موجودة تستطيعون أن تستغلوها . .

ولقد أراد القرآن أن يرد على هذا الاعجاز . . فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾

(سورة الحاقة)

حتى الرد فيه اعجاز . . فالشعر مفهوم . . انه من كلام موزون مقفى يعرفه

الناس جميعا . . ومن هنا فكونكم تقولون ان هذا شعر . . فهذا دليل على أنكم تكفرون . . لماذا ؟ . . لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة . . وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه . . ولذلك عندما تقولون أيها الكفار انه قول شاعر . . وما تقولونه ليس عن جهل . . ولكن عن كفر بالله سبحانه وتعالى لأنكم تعرفون الشعر جيدا . . ثم قال الله سبحانه وتعالى . . وإنما تقولون إنه قول كاهن . . فهنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة تذكرون . . أى انكم فى قولكم انه قول كاهن . . وقول الكاهن كلام فيه سجع . . ويمكن أن يختلط . . ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات . . ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الاعجاز . . كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت . . والزمن . . ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن . . ولذلك عندما رد الله سبحانه وتعالى على قولهم انه كاهن . . كان الرد بكلمة تذكرون . . لأنه من الواضح أن هذا ليس شعرا . . ومن هنا فإنه يمكن أن يختلط بكلام الكهان . . والفرق بين النثر والشعر فى هذه الحالة هو أولا الاعجاز فى مخاطبة ملكات النفس البشرية . . وثانيا طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قال . . ومن هنا قال الله سبحانه وتعالى « قليلا ما تذكرون » أن البشر معرض أن ننسى ما يقوله . . فاستخدم كلمة تذكرون . . ولم يستخدم كلمة تؤمنون . . أو الكفر . . التى استخدمها فى الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر . . لأن الشعر له قواعد معروفة . .

نأتى بعد ذلك إلى اعجاز آخر فى القرآن . . انه إذا قرأت أى كلام منثور . . ثم جاء الكاتب فاستشهد ببيت من الشعر . . تشعر ساعة ينتقل الكاتب أو المتكلم من النثر إلى الشعر . . انك انتقلت من طبيعة كلام إلى كلام آخر . . ثم تترك بيت الشعر وتعود إلى النثر فتعرف أيضا إنك انتقلت من كلام إلى كلام آخر . . نأتى إلى رسالة بن زيدون التى يقول فيها : « ومع اليوم غد . . ولكل أجل كتاب له الحمد على اهتباله . . ولا عتب عليه فى اغفاله » . .

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا

فأفعاله اللائى سررن ألوف

وهنا نلتفت فنجد اننا انتقلنا من النثر إلى الشعر فى كلام فى غاية الانسجام . . ولكى نعرف الفرق . .

نأتى إلى القرآن الكريم . . كلام الله . . اقرأ القرآن . .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾

(سورة الحجر)

أنت قرأت هذا النص القرآنى ولم تشعر أنك قد انتقلت من النثر إلى الشعر إلى النثر مرة أخرى دون أن تدرى . . أى انك انتقلت من شيء منثور إلى شيء منظوم . . ثم من شيء منظوم إلى شيء منثور . . وأتحدى أن يأتى بها إنسان عندما تنظر إلى الكلام الذى قيل « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . . وأن عذابى هو العذاب الأليم » ما جنى بارقات مستفعل فاعلات . . بيت من الشعر . . ومع ذلك ما أحست أذنى انى انتقلت من النثر إلى الشعر . . وانى انتقلت بعده من كلام منظوم إلى كلام منثور . .

ومثل ذلك تجده فى كثير من آيات القرآن الكريم . . امرأة العزيز عندما جمعت النسوة :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ

ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

(سورة يوسف)

قول الله سبحانه وتعالى « **فذلكن الذى لمتننى فيه** » مستفعل فاعل .. مستفعل فاعل .. هل شعرت أنك انتقلت من كلام منثور .. وكذلك قول الله سبحانه وتعالى « **فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر** » .. مفاعيل .. مفاعيل .. مفاعيل .. « **والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** » ..

فى كل من هذه الآيات لم تشعر أنك انتقلت من شعر إلى نثر .. لأنه توجد هناك فجوة كلامية .. والقرآن نظم فريد .. لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع .. وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى .. إذن فبلاغة القرآن فى مطابقته للحال .. حال جميع المخاطبين .. وبلاغته فى الانتقال من الشعر إلى النثر .. ومن النثر إلى الشعر دون أن تحس .. وبلاغته فى تحريك النفس البشرية .. كل نفس بشرية .. وبلاغته فى أن الله تحدى أساطين البلاغة .. بل تحدى الأنس والجن فى أن يأتوا بسورة من مثله .. فعجزوا وأمام هذا العجز لم يستطيعوا أن يصوبوا المواجهة التى يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد .. لم يستطيعوا أن يصوبوا هذه المواجهة إلى ذات المعجزة وهى القرآن الكريم .. لأن التحدى كان أقوى منهم جميعا .. فإذا بهم يصوبون ذلك إلى من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد صلى الله عليه وسلم .. قالوا :

« **لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** »

ـ وهنا مربط الفرس .. الحقد والغيرة لم يستطيعا أن يواجها القرآن .. فقالوا لماذا اختار الله محمدا لينزل عليه القرآن .. كإنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه السلام .. وليست آفته أنه صراع بين حق ينادى به القرآن .. وباطل هم مقيمون عليه ..

والذى يقيم على الباطل يريد للباطل أن يستمر .. لأن الباطل هو الذى يعطيه القوة والقدرة والسيادة .. وهو يريد لهذا الباطل أن يبقى لتبقى له

السيادة .. فيأتى الحق .. ويغلبه .. ويحس أن ملكه سيزول فيقول :

« اللهم ان كان هذا هوالحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء »

إذن فهو يريد العزة مع الباطل .. أما إذا كان زوال الملك سيأتى مع الحق فهو لا يريده .. ويطالب الله .. أو يطلب من الله أن يمطر عليه حجارة من السماء .. إذن فهو يكره الحق لذاته .. لأنه سيسلبه سلطانه وقوته .. ويريد للباطل أن يستمر .. ليبقى سيدا .. ولو بغير الحق .. ثم يقول الكفار بعد ذلك : **« ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا »** .. إذن المانع من الإيمان ليس أنه غير الحق .. لكن المانع له أنه سيزيل عنكم السيادة التى أعطاها لكم الباطل .. وسيتجرأ عليكم الناس وتتخطفون من أرضكم .. وكان هذا هو العناد .. بعد أن فشلوا فى تحدى معجزة القرآن اللغوية .. والرد عليها ..

معنى الحروف فى القرآن

ولكنهم فى تحديهم ووقوفهم موقف المعارضة .. أثبتوا أنهم داخل نفوسهم يعتقدون أن القرآن هو الحق .. لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا اعجازه .. الاعجاز أولا فى النبى المختار للدعوة .. والاعجاز ثانيا فى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر .. ولنتحدث عن هاتين النقطتين بشىء من التفصيل .. الاعجاز الأول أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقرأ .. ولم يكتب طوال حياته .. ولم يتعلم القراءة والكتابة .. ولم يدرس الأدب ولا الشعر .. ولا النثر .. ولا علم الكلام .. إلى غير ذلك .. ومع هذا فقد جاءوا بكلام غاية فى الاعجاز .. كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة .. وبرعوا فيها أن يأتوا به .. أو يأتوا بسورة من مثله .. بل الاعجاز يتجلى أكثر فى أن الله سبحانه وتعالى أثبت فى القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام .. بل هو كلام لا يمكن أن يأتى به أمى .. فالإنسان الأمى قد ينطق الكلمات .. وقد ينظم الشعر والنثر والسجع .. ولكنه لا يستطيع أبدا أن يأتى بالحروف التى تتكون منها الكلمات .. فإذا أنت ذهبت إلى إنسان لم يعرف فى حياته القراءة والكتابة .. وسألته ما هذا .. يقول لك هذا كوب مثلا .. فإذا قلت له ما هى الحروف التى تتكون منها كلمة كوب لم يعرف لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة .. وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى بالحروف التى

لا يعرف مسمياته رجل أمى . . ويجعل النبى ينطق بها ويجعلها فى القرآن فيقول : « ألف . . لام . . ميم . . كاف . . ها ـ يا ـ عين ـ صاد » امعانا فى الاعجاز والتحدى . . محمد نبى أمى لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبدا . . ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف . . لاثبات بأن هذا ليس كلام محمد عليه الصلاة والسلام . . لأنه لو كان كلام محمد وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب فى حياته . . لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التى لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة . .

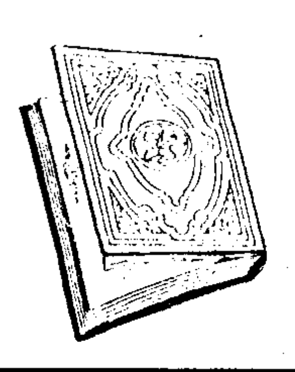
مهارة الصانع

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر فى أسلوب ومعان يعجز عنها البشر . . وهذا اعجاز وتحد . . لأنك تريد أن تدلل على مهارة الصانع فى أى شىء . . فأنت لا تأتى بمادة مختلفة . . ثم تقارن بين صانع وآخر . . أنت إذا أردت مثلا أن تعرف من هو أمهر الناس فى صناعة النسيج . . لا تأتى بخامة من حرير . . وخامة من قطن . . وخامة من خيش . . ثم تعطيها لثلاثة صناع . . وتقارن بين انتاجهم . . لأنك فى هذه الحالة لا تستطيع أبدا أن تقول ان هذه أحسن من هذه . . لأن نسيج الحرير لابد أن يكون أحسن . . نظرا لأن الخامة التى صنع منها الثوب هى أفضل الخامات . .

ولكن المهارة تكون فى استخدام مادة واحدة . . نعطى الكل قطنا أو حريرا أو صوفا . . ولذلك تكون العناصر المكونة للشىء واحدة . . أو متساوية . . فلا يكون لها دخل فى الجودة . . وتكون الجودة أو المهارة للصانع نفسه . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولاً أن القرآن لم يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو الله سبحانه وتعالى . . مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر . . بل هى من جنس كلام البشر . . الحروف هى الحروف . . والكلمات هى التى تنطقون بها هى نفس الكلمات المستخدمة . . وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم . . ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده . . ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدى . . الحروف نفس الحروف . . والكلمات نفس الكلمات . . ولكن الذى أفحمهم هو الله سبحانه وتعالى . . فلم يستطيعوا أن

يأتوا بمثله . . وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف . . ومن هنا كان التحدى عظيما . . لأن الفارق هو بين قدرة الله سبحانه وتعالى . . وبين قدرة البشر . .

وعندنا فى البلاغة عندما نقول ان هذا الشىء بليغ . . ونقول ان العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة . . يعنى أن البلاغة هى وضع الكلام مناسبا للمقام الذى يقال فيه . . ومستوفيا لأركان سلامته . . وأركان الكلام هى ألا يكون بين الحروف تنافر . . مثل أن تكون الكلمة هيع . . هيع . وإنما تكون الكلمات منسجمة . . ولا تأتى مخالفة لقانون اللغة . . ولا تكون غريبة على الأذن . . عندما تستوفى الكلمة هذه الشروط . . توضع فى جملة يشترط أن تكون منسجمة مع الكلمة الأخرى . . خاضعة لقواعد اللغة . . وليس فيها تعقيد . . إذن عندما جاءوا ليعرفوا البلاغة قالوا هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . تراكيب منسجمة ومخاطبة للبشر . . مطابقة لمقتضى عقلهم . . ومن هنا فكانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب . . ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون هناك علم . . وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود . . ولكن علم الله سبحانه وتعالى بلا حدود . . ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم فى أنه معجز فى مخاطبته للبشر جميعا . . معجز فى بلاغته . . ومطابقته بمقتضى مخاطبته للبشر جميعا يخاطب ملكات فى النفس لا ندرى . . لا نعرف سرها . . مكون من نفس الحروف والكلمات التى يستخدمها العامى . . والمتلعم . . تحدى به الله البشر أن يأتوا بسورة مثله . . ثم تحدى الانس والجان . . وهم الذين لهم اختيار . . ووضع الله فيه أسماء الحروف كاعجاز لأن الموحى إليه وهو النبى صلى الله عليه وسلم أمى لم يقرأ . . ولا يكتب . . على أن الاعجاز فى القرآن لا ينتهى عند هذا الحد . . وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التى يعجز عنها البشر . . **وهو موضوع الفصل القادم .**



الفصل الرابع

البلاغة في القرآن الكريم

إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة القرآن . . وبلاغته . . فإننا لابد أن نتناول دقة اللفظ . . أو دقة التعبير فى القرآن الكريم . . وكلام الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون فى غاية الدقة . . بحيث يعبر عن الشىء تعبيرا كاملا . . فلا تجد حرفا زائدا بلا معنى . . ولا كلمة مترادفة إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم . . والحقيقة أن المعجزة فى القرآن تجدها فى حرف . . فيقول الله سبحانه وتعالى :

« قل سيروا فى الأرض »

وتقف أنت عند هذه الآية الكريمة وتسأل . . لماذا لم يقل الله : قل سيروا على الأرض . . هل أنا أسير فى الأرض . . أو على الأرض . . حسب مفهوم الناس جميعا . . فأنا أسير على الأرض . . ولكننا نجد أن الله قد استخدم كلمة فى . . ولم يستخدم كلمة على . . يقول : سيروا فى الأرض . (ففى) تقتضى الظرفية . . والمعنى يتسع لأن الأرض ظرف المشى . . ومن هنا فإن التعبير جائز . . ولكن ليس فى القرآن كلمة جائز . . فالتعبير بقدر المعنى تماما . . والحرف الواحد يغير المعنى وله هدف . . وقد تم تغييره لحكمة لكن ما هى حكمة استخدام حرف (فى) بدلا من حرف (على) . . ؟

عندما تقدم العلم وتفتح وكشف الله أسرار الأرض وأسرار الكون . . عرفنا أن الأرض ليس مدلولها المادى فقط . . أى أنها ليست الماء والأرض . . أو الكرة الأرضية وحدها . . ولكن الأرض هى بغلافها الجوى . . فالغلاف الجوى جزء من الأرض يدور معها ويلازمها . . ومكمل للحياة عليها . . وسكان الأرض يستخدمون الخواص التى وضعها الله فى الغلاف الجوى فى اكتشافاتهم العلمية . . والدليل على ذلك أنك إذا ركبت الطائرة فإنها ترتفع بك ٣٠ ألف قدم مثلا عن سطح الأرض . . ومع ذلك فإنك لا تقول إنك خرجت من الأرض . . ولكنك تقول أنت تطير فى الأرض . . متى تخرج من الأرض علميا وحقيقة . . عندما تخرج من الغلاف الجوى للكرة الأرضية مادمت أنت فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية . . فأنت فى الأرض . . ولست خارج الأرض . . فإذا خرجت من الغلاف الجوى . . فأنت فى هذه اللحظة التى تخرج فيها خارج الأرض . . الغلاف الجوى متمم للأرض . . وجزء منها . . ويدور معها .

نعود إلى الآية الكريمة ونقول : لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ فى . . ولم يستخدم لفظ على . .؟ لأنك فى الحقيقة تسير فى الأرض . . وليس على الأرض . . هذه حقيقة علمية لم يكن يدركها العالم وقت نزول القرآن . . ولكن الله سبحانه وتعالى وهو القائل . . وهو الخالق يعرف أسرار كونه . . يعلم أن الإنسان يسير فى الأرض . . أنه يسير على سطح الأرض . . ولكنه لا يسير على الأرض . . بل يسير فيها بين الغلاف الجوى والسطح . . ومن هنا فهو يسير فى الأرض . . أى فى وسطها بين غلافها الجوى الذى هو جزء منها . . وبين اليابسة التى هى جزء آخر . . وهكذا نجد دقة التعبير فى القرآن فى حرف . . ونجد معجزة القرآن فى حرف . .

اختلاف الصبر

انتقل بعد ذلك إلى مثل آخر لنعرف مدى بلاغة القرآن فى اختيار اللفظ الذى يناسب المعنى تماما . . وليس فيه تجاوز ولا مترادفات . . يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(سورة لقمان)

. . ثم نجد فى آية ثانية . .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

. . زادت هنا اللام . . أى إنسان يقول إن زيادة اللام هنا للتأكيد . . كلمة مترادفة . . لا يتوقف عندها كثيرا . . ولكن المسلم حين يدقق فى معانى القرآن الكريم . . يجد أن كل حرف فى القرآن الكريم . . قد تم وضعه بحكمه بالغة . . وأنه لا شىء اسمه مترادفات . . وانما لكل لفظ معنى يؤديه ، ولا يؤديه اللفظ الآخر . . رغم التشابه . . فإذا دققنا فى المعنى نجد ما يلى : فى الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى « واصبر على ما أصابك » . والأمر هنا نوعان نوع

للإنسان فيه غريم .. ونوع لا يوجد فيه غريم .. عندما أمرض ليس لى غريم .. وإذا أصابنى مكروه بقضاء وقدر .. كأن أكون سائرا فى الطريق فيسقط شيىء فوقى ليس هناك غريم .. إنما عندما أسير فى الشارع ويعتدى على إنسان بالضرب .. إذن هناك غريم .

فهناك نوعان من الصبر .. صبر النفس وما ليس لى فيه غريم .. وهذا هين لأنه ليس هناك إنسان انفعل عليه .. ولا أملك أن أرد على شيء قد حدث لى .. ما حدث هو قضاء الله .. وأنا ليس أمامى إلا الصبر .. هذا نوع من الصبر لا يحتاج إلى طاقة كبيرة ليمارسه الإنسان .. لأنه ليس هناك غريم استطيع أن أرد له ما أصابنى ..

والنوع الثانى من الصبر .. محتاج إلى جلد .. ومحتاج إلى قوة ارادة .. وهذا النوع هو الذى يوجد لى فيه غريم أستطيع أن أنتقم منه .. وأستطيع أن أصفح وأغفر .. إذن عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصبر بنوعيه .. يعطى لكل نوع ما يستحقه من وصف للنفس البشرية .. فهو عندما يتحدث عن الصبر على شىء ليس له .. فيه غريم .. يقول :

« **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** »

وعندما يتحدث عن الصبر الذى لى فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم .. وأكون منفعلا إذا لم أنتقم .. يقول سبحانه وتعالى :

« **إن ذلك لمن عزم الأمور** »

هنا اللام للتأكيد فى نوع الصبر .. وما يحتاجه من جلد وضبط للنفس .. ففى الحالة الأولى حينما لا تستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به .. يكون الصبر من عزم الأمور .. ولكن فى الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« **ولمن صبر وغفر** »

وهنا يظهر من كلمة غفر .. أن هناك غريما يمكن الانتقام منه .. وأن هذا الغريم قد غفر الإنسان له .. ومن هنا لابد أن تأتى اللام للتأكيد .. لتؤكد المعنى .. وتؤكد الفرق بين عزم الأمور فى الحالة الأولى .. وعزم الأمور فى الحالة الثانية .. وهكذا نرى أن حرفا واحدا فى القرآن الكريم يصنع معجزة ..

مخاطبة النفس البشرية

على أن المعجزة لا تأتى فى حرف فقط .. بل تأتى أيضا فى مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة .. الشيء الذى ينبىء عن علم تام بخفايا النفس البشرية .. وملكاتها التى نعرفها .. والتى نجهلها .. فمثلا عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين بأن يطوفوا بالبيت الحرام .. ساعة ما يلقى هذا الأمر ، ما الذى يهتز فى نفس المسلم الذى يستمع .. أى الملكات تهتز .. ملكة الاقتصاد فى النفس .. على أساس أن هؤلاء المشركين يأتون من كل الدول .. المدن .. القرى .. والبلاد المحيطة بمكة .. وهذه لم يصلها الإسلام بعد .. ومعنى منعهم من الحضور .. منع الخير الذى يأتى معهم .. فهم يأتون بالبضائع .. وينفقون .. ويحدثون رواجا اقتصاديا .. هنا تهتز ملكة الاقتصاد فى النفس .. والله سبحانه وتعالى وهو خالق للنفس البشرية .. يعلم هذا .. فعندما تنزل هذه الآية .. لا تقتصر على مخاطبة ناحية افعل ولا تفعل .. كأوامر ونواه .. وطريق ومنهج للحياة .. ولكن تتجلى فيها رحمة الله فتخاطب الآية الملكة النفسية التى تتأثر بالاقتصاد .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »

يخاطب فى نفس الآية الملكة الاقتصادية .. ويخاطب الملكة الاقتصادية قبل أن يثار السؤال فى أن ذلك سيؤدى إلى ضيق الرزق .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

« وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله »

نفس الآية .. والمعنى هنا أنه حذار أن تفتنكم الملكة الاقتصادية والخوف من ضيق الرزق عما أقول لكم فى افعل ولا تفعل .. ولا تخافوا من الفقر .. فإن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد .. وسيغنيكم من فضله ..

إن هذا المعنى .. معنى الملكة الاقتصادية .. وتأثيرها داخل النفس يتكرر الآن فى أشياء كثيرة تحدث فى الدنيا .. والله سبحانه وتعالى حين يقول لك افعل كذا .. أو يقول لك لا تتعامل مع كذا .. يأتى بعد ذلك مباشرة السؤال إلى ذهنك .. والرزق الذى أحصل عليه من هذا التعامل .. من أين آتى به .. وهنا يقول الله سبحانه وتعالى انى أرزقك من طريقى .. ومادام الرزق بيدى أنا فإننى سأيسر لك سبيلا آخر للرزق .. ولا تخش الفقر .. ولا تخف من أن رزقك سيناله غيرك .

« هو . . يطعمنى ويسقين »

والله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب دائما ملكات النفس البشرية . . ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين . . بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات . . فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطى معنى جديدا . . أو يفهم شيئا جديدا . . وهذه الدقة الهائلة . . تجدها موجودة بكثرة فى القرآن الكريم . . مثلا إبراهيم عليه السلام يقول :

« فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين »

. . هنا نتوقف لنسأل : لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام هو الذى خلقنى فهو يهدين . . وقال : الذى خلقنى فهو يهدين . . لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد . . فليس هناك إنسان مهما كبر وعظم وحكم الدنيا كلها . . يستطيع أن يدعى إنه يخلق إنسانا . . وإلا فسنطلب منه أن يفعل ذلك وسيعجز . . إذن فالخلق لم يدعه أحد . . لذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد . . إنما الهداية هناك مئات الألوف ممن يدعون إنهم يهدون الناس . . بعضهم وضع مناهج مع الدين . . وبعضهم وضع مناهج ضد الدين . . والمهم إنهم جميعا يدعون إنهم يريدون هداية البشر . . وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه . . ويدعى انه للهداية . . ومن هنا كان لابد من التأكيد على أن الهدى من الله وحده . . إن الحق والطريق المستقيم من الله وحده . . وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لابد من وضعه . . وإن الضمير فى الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكر به . . فالخلق صفة من صفات الله . . لا ينازعه فيها أحد . . فهو ليس محتاجا إلى تأكيد وإنما الهدى فيه ادعاءات من الناس . . وهنا تأتى كلمة (هو) ضرورة . ثم تأتى بعد ذلك فى :

« والذى هو يطعمنى ويسقين »

لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب فهناك ادعاءات كثيرة فى الرزق . . ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى كلمة :

« هو يطعمنى ويسقين »

ويقول أيضا :

« وإذا مرضت فهو يشفين »

.. ذلك إننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى .. ثم بعد ذلك نأتى إلى عدم وجود كلمة هو فى قوله تعالى :

« والذى يميتنى ثم يحيين »

ولم يقل : والذى (هو) يميتنى ثم (هو) يحيين .

لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله فى مسألة الموت والحياة .. ولا يدعيها لنفسه .. ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال .

وهكذا نرى فى هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالضمير فيضعه مرة .. ويحذفه مرة .. لأن المقام يقتضى ذلك .. ولأن دقة التعبير فى القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع فى المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة .. سواء من ناحية الاضافة أو الحذف .. أو اختيار الكلمات .. ولو إن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة هو فى كل الآيات التى ذكرناها .. أو حذف كلمة هو من كل الآيات التى ذكرناها .. لما تنبه لذلك معظم الناس .. لمعنى الحديث على أساس أنه كلام بشر .. ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى ..

لماذا التغيير

ونرى أن الدقة البالغة فى التعبير تقتضى التغيير فى كل حرف يتم .. وفى كل كلمة تقال .. بل فى نفس الكلمة مثلا .. مثل سقيناهم .. وأسقيناهم .. سقيناهم متعديا .. وأسقيناهم متعديا ..

« سقاهم ربهم شرابا طهورا »

هذا قول الله سبحانه وتعالى .. وفى آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى :

« وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم »

لماذا لم يقل لو استقاموا على الطريقة لسقيناهم .. مع أن سقى وأسقى بمعنى واحد .. واللفظان يتعديان لمفعولين .. ما هو الخلاف .. هل هى مجرد مترادفات .. أم ألفاظ تتغير حتى لا تتكرر نفس الألفاظ .. أبدا .. كل تغيير له حكمه .. كل تغيير يحدد معنى معينا لا يحدده غيره .. ونحن حين نأتى ونتابع القرآن الكريم نجد أن سقى تستخدم فى الأمر الذى ليس فيه كلفة ولا علاج .. وأسقيناهم فى الأمر الذى فيه كلفة وعلاج .. هذا فى أمور الدنيا

« أسقيناهم ماء غدقا »

أمر فيه كلفة . . فيه جهد . . نحن أوجدنا لهم الماء وجعلناه متوافرا لديهم بلا تعب ولا نصب . . فهو موجود فى البئر . . ولكن لكى تتم السقيا يجب أن يذهب الإنسان إلى البئر ليشرب . . أو أن يحضر له إنسان آخر الماء . . إذن هنا فى أسقيناهم . . رغم أن الماء موجود بقدرة الله سبحانه وتعالى . . ومتوافر بقدرة الله سبحانه وتعالى . . إلا إن عملية السقا فيها عمل من الإنسان . . أو جزء من العمل . . فإذا أتينا إلى كلمة سقيناهم . . نجد الله سبحانه وتعالى يقول :

« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

هذا فى الجنة . . بمجرد الخاطر ليس فيه كلفة . . إذا أحسست بالعطش وجدت الماء أمامك يصل إلى فمك . . هنا فى الآخرة لا يوجد أى جهد ولا أى كلفة للإنسان فى أى عمل يعمله . . فكل شىء فى الجنة متى تمناه الإنسان وجده حاضرا أمامه . . إذن فقول الله سبحانه وتعالى . .

« وسقاهم ربهم شرابا طهورا »

معناه أن السقيا هنا فى الجنة ليس فيها أى جهد . . ولا أى كلفة . . ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين السقيين . . رغم إنه هو الذى أوجد الماء أو ما يتم شربه فى الحالتين .

« يعلمون . . ويعقلون »

إذا مضينا نقرأ فى القرآن الكريم . . نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظا معينا . . وفى حالة مماثلة لم يأت بنفس اللفظ حتى انك حين تسمع الآية تظن أنه سيأتى باللفظ الأول . . ولكنه لا يأتى به . . مثلا يقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعلمون »

ويقول الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون »

لماذا الاختلاف فى الكلمة . . مع أن العلم والعقل واحد . . أقول إن هناك فرقا كبيرا يحتم فى مرة استخدام لفظ يعلمون . . وفى مرة استخدام لفظ يعقلون . .

نأتى إلى نص الآيتين الكريمتين فى سورة البقرة يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والآية الثانية فى سورة المائدة . .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾

(سورة المائدة)

ولكن عندما يأتى المستشرقون يقولون إن اللفظين مترادفان . . فالعلم والعقل . . العقل والعلم شيء واحد . . والعاقل من علم أو من استطاع أن يعقل العلم ، ويقولون إن هذه مترادفات إلى آخر ما يقال فى هذا الموضوع . نقول لهم إنكم حينما تقولون هذا الكلام . . إنما لا تعرفون شيئا عن بلاغة القرآن الكريم . . فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم لفظين لأداء نفس المعنى ولكن كل لفظ له معناه . . كل لفظ يعبر بدقة عن المعنى المراد منه . . فالله سبحانه وتعالى عندما يقول يعقلون . . معناها إنهم لا يفهمون شيئا أى ليس لهم عقول تفكر . . لا يتدبرون فى أمر هذا الكون . . إنهم لا يستخدمون عقولهم . .

ولو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق البارىء .. وإن هذا الكون بدقته وبديعه لا يمكن إلا أن يكون من خلق الله سبحانه وتعالى .. هذه فى كلمة يعقلون .. إذن هنا هو نفى عنهم التدبر والتعقل فى أمور العبادة وفى أمور هذا الكون ..

ولكن عندما يقول الله سبحانه وتعالى لا يعلمون فهو قد نفى عنهم التعقل والعلم معا .. بمعنى أننى قد أكون أنا باحثا فى هذا الكون .. قد أكون متأملا فيه عاقلا لما يدور .. فافكر بعقلى .. وأصل إلى أشياء .. هذا هو الإنسان الذى يعقل .. أما قوله تعالى :

« لا يعلمون »

فهو يريد أن يقول لنا . إنهم بجانب عدم تدبرهم فى هذا الكون .. وإنهم لا يعقلون الآيات الموجودة فيه .. هم أيضا لا يعقلون ما علمه غيرهم من العلم .. فالذى لا يعقل لا يتدبر ولا يفكر فى آيات الكون .. أما الذى لا يعلم فهو لا يفكر بعقله .. ولا يعلم ما عقله غيره .. إنه ليس لديه علم .. ولا علم له من نتاج عقل غيره .. فالعلم أوسع من التعقل .. ذلك أن العلم قد يكون علم غيرى دونه أو كتبه وسجله وأكون أنا فى هذه الحالة قد أخذت هذا العلم .. وقرأته .. فكأنى علمت ما عقله غيرى .. وهذا يحدث لنا كل يوم فنحن حين نقرأ كتابا جديدا نعقل ما علمه غيرنا .. وحين نذهب إلى الجامعة ندرس ما علمه الأساتذة وكبار المفكرين .. فأنا لم أعقل الجاذبية مثلا .. ولم أعقل قوانين الفضاء لأننى لم اشتغل بها لكى أصل إليها بعقلى .. ولكنى علمتها عن طريق عالم فى الفضاء .. أو فى الجاذبية .. ووصل بعقله وفكره إليها ثم قرأت أنا ما علمه هو .. فأنا هنا علمت ما عقله غيرى .. فالله سبحانه وتعالى حين يقول لا يعقلون فى الآية الأولى .. أى إنهم لا يتدبرون فى الكون مستخدمين عقولهم .. لأنهم يقولون ..

« بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا »

ومن هنا فإن الله رد عليهم .

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

ولذلك يصفهم الله سبحانه وتعالى :

« صم بكم عمى فهم لا يعقلون »

أى لا يسمعون ولا يرون ولا يتحدثون بآيات الله سبحانه وتعالى وهذا هو السبب فى أنهم لا يعقلونها .. ولكن حين يقول الله سبحانه وتعالى : « لا يعقلون » .. تأتى ردا على كافرين .. قالوا :

« حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »

هنا هم قد نطقوا .. قالوا : لا نريد شيئا .. ولا نريد علما .. يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا .. فرد الله سبحانه وتعالى :

« أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

أن أنهم لا يعلمون علما بعقلهم .. ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم .. وهكذا نرى الفرق بين كلمة لا يعقلون .. وكلمة لا يعلمون ..

نرزقهم .. ونرزقكم

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى تشهد على بلاغة القرآن الكريم .. ودقة التعبير فيه .. والقرآن الكريم ملىء باعجاز لا ينتهى أبدا .. مثلا بعض الآيات فى القرآن الكريم يقول العقل السطحى أن معناها واحد .. ويتساءل لماذا غير الله سبحانه وتعالى الألفاظ .. ولكن المتدبر فى القرآن الكريم لا يمكن أن يقول إنها توارد ألفاظ .. فليس هناك شىء فى القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظ .. ولكن هناك دقة بالغة فى التعبير .. واختيار اللفظ ..

فالنظر إلى المعنى الذى قد لا يفطن إليه كثير من الناس .. مثلا فإن وأد البنات كان موجودا فى الجاهلية .. ثم جاء الإسلام ليمنع هذا .. فقال الله سبحانه وتعالى :

« ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم »

.. الكلام هنا عن الفقر وقتل الأولاد .. نأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية ..

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم »

والآية الأولى « نحن نرزقكم واياهم .. والآية الثانية « نحن نرزقهم واياكم »

نسأل ما هو الخلاف .. الآية الأولى تقول ولا تقتلوا أولادكم من املاق .. أى أن الفقر موجود فعلا .. الاملاق وهو الفقر موجود فعلا .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى نحن نرزقكم واياهم .. مادام الفقر موجودا فعلا .. يكون الإنسان مشغولا برزقه أولا .. يبحث عن طعامه هو أولا ثم بعد ذلك يبحث

عن طعام من سيأتى به من أولاد . . هم الإنسان هنا هو البحث عن طعامه وطعام زوجته . . ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقكم واياهم** » . . أى انه يطمئنه أولا على رزقه الذى هو شغله الشاغل . . ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده فيقول له : أنت فقير ومشغول برزقك . . وتخشى أن تأتيك الأولاد . . . لأنك لا تملك ما تطعمهم به . . اننى أرزقك . . وأرزقهم . . انك لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئا . . ولكن الآية الثانية تخاطب نوعا آخر من الناس . . الآية الثانية تقول :

« **ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم** »

هنا الإنسان ليس مشغولا برزقه لا يخشى الفقر . . عنده ما يكفيه . . ولكنه يخاف أن رزق بطفل أن يصاب بالفقر . . أن يأخذ هذا الطفل جزءا من الرزق . . ويصبح الرزق لا يكفيه . . ويكفى طفله . . ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف انجاب الأطفال . . لماذا ؟ لأنه يخشى أن يأخذوا من رزقه شيئا . . فيصبح فقيرا . . فيقول الله سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقهم وإياكم** » . . الآية الأولى كان الشغل الشاغل للإنسان هو رزقه . . فخاطبه **الله** سبحانه وتعالى أولا بقوله نحن نرزقكم . . ليطمئنه أولا على رزقه . . الآية الثانية رجل ميسر فى الرزق لكنه يخشى الفقر من الأولاد . . **فالله** طمأنه على أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئا بقوله سبحانه وتعالى « **نحن نرزقكم واياكم** » . . إذن فالتغيير هنا لازم وضرورى . . كل يخاطب حاله على حده . .

ولكن لماذا قال **الله** سبحانه وتعالى : « **نحن نرزقهم واياهم** » وقال « **نحن نرزقكم واياكم** » . . ولم يقل نحن نرزقكم جميعا ؟ لأن **الله سبحانه وتعالى** يريد أن نعرف إنه لكل إنسان فى هذه الدنيا رزق مستقل عن الآخر . . وهذا الرزق الذى قسمه الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذ منه شيئا . . ومن هنا فالمولود لا يأخذ من رزق أبيه شيئا . . والوالد لا يأخذ من رزق ابنه شيئا . . ولأعلم اننى حينما أرزق بمولود أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم رزقى بينى وبينه . . أو عندما أقتل المولود لن استأثر أنا برزق أكبر . . أبدا . .

أنت العزيز

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) ﴾

(سورة المائدة)

ثم يقول عيسى بن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

(سورة المائدة)

كون عيسى بن مريم يقول :

« **إن تعذبهم فإنهم عبادك** »

فهذا مفروغ منها .. فنحن جميعا عباد الله مقهورون لارادته .. خاضعون له سبحانه وتعالى ولقضائه .. ثم يقول عيسى بن مريم : (وإن تغفر لهم) هذا طبعا ما يرجوه كل إنسان من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة .. ولكن هنا يتبع كلمة « وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . لماذا لم يقل إنك أنت الغفور الرحيم ؟ هنا موقف غفران .. فلماذا العزة فى موقف الغفران .. وليست المغفرة والرحمة ؟ يقول بعض الناس إن العبارة غير متمشية .. وإن سياق الكلام كان يقتضى أن يقول عيسى بن مريم « إنك أنت الغفور الرحيم » ونحن نقول إن كل من يثير هذا الكلام لا يفهم اعجاز القرآن .. فقول ابن مريم « إن تغفر لهم » .. يحمل نفس المعنى فى إنك أنت الغفور وإلا أن لم تكن غفورا فكيف تغفر . ولكن قوله إنك أنت العزيز الحكيم ما سبب وضع « العزيز الحكيم »

هنا .. هل الآية مختومة بما لا يتمشى مع العقل ؟

الآية مختومة بعبارة من أبلغ ما يمكن .. هنا فى مطلب الغفران .. وهو يدعو الله أن يغفر لعباده .. فيقول له : وإن تغفر لهم .. فإنك أنت العزيز .. أى الذى لا يحاسبه أحد على ما يفعل .. فلا أحد سيأتى ليقول لله لماذا غفرت لهؤلاء الناس الذين عصوا ؟ لأنك أنت العزيز لا يحاسبه أحد .. وليس فوقه قوة .. فأنت يا ربى إن أردت أن تغفر لهم فهى مشيئة رحمتك .. فإنك قادر .. لماذا ؟ لأنك أنت العزيز تستطيع أن تفعل ذلك دون أن يسألك أحد .. الحكيم الذى يتم كل أمر منك بحكمة .

وهكذا نرى أن هذه الكلمة وضعت بحكمة زيادة فى الاستغفار .. زيادة فى طلب المغفرة .. ياربى اغفر لهم إنك أنت العزيز .. لا يحاسبك أحد .. ولا يعقب عليك .. وبالتالى فنحن نلوذ بشيئين بأنك غفور رحيم .. وبأنك عزيز حكيم .. غفور تغفر الذنوب للعاصين .. وعزيز تستطيع أن تغفر ما تشاء لمن تشاء .. بلا قيود .. ولا يحاسبك أحد على ما تفعل .. ولا يعتب عليك .. ولا يسألك .. انك تستطيع أن تغفر الذنوب مهما بلغت .. هل وضح الآن معنى استخدام كلمة « العزيز » ؟!

ظالم النفس .. والسوء

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية .. فى الآية الكريمة ..

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم »

.. وقوله تعالى :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه »

بعض الناس يتساءل : أليست الفاحشة والسوء هما ظلم النفس .. انهما نفس الشيء .. فالذى يظلم نفسه يقودها إلى العذاب .. والذى يفعل فاحشة يقود نفسه إلى العذاب .. نفس الشيء .. بل إن بعض الناس يقولون إن العطف هنا غير واجب .

ولكننى أقول لهم أن دقة التعبير .. ودقة اللفظ من دقة القائل .. والله سبحانه وتعالى يبين لنا اعجاز القرآن .. ويقول لنا إن هناك فارقا بين من يفعل سوءا أو فاحشة .. ومن يظلم نفسه .. ما هو هذا الفارق ؟

الذى يفعل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة . . نفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا . . إنسان شرب الخمر . . حقق لنفسه لذة الخمر . . إنسان زنا . . حقق لنفسه شهوة عاجلة . . إنسان سرق مال غيره . . حقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال . . هذا هو الإنسان الذى يفعل السوء أو الفاحشة . . أما الإنسان الذى يظلم نفسه فهو إنسان آخر . . إنه يرتكب إثما ولا يستفيد منه . . لا يعطى نفسه شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة . . حينئذ يكون قد ظلم نفسه . . بمعنى إنه لا أعطاها شيئا عاجلا . . ولا نجاها من عذاب الآخرة . .

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه . . ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره . . الذى يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة . . أما من باع دينه بدنيا غيره . . خاب فى الأولى والآخرة . . هو الذى ظلم نفسه . . ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه . . فالإنسان حين يشهد زورا ليؤذى غيره لم يستفد هو شيئا فقد ظلم نفسه . . ارتكب إثما . . شهادة الزور دون أن يحقق نفعا دنيويا . .

إذا قبض ثمن شهادة الزور . . يكون قد حقق نفعا دنيويا . . ولكن الذى يظلم نفسه هو الذى يفعل ذلك ليرضى غيره . . ونجد كثيرين فى الدنيا مثل هؤلاء .

إنسان يتهم إنسانا آخر بتهمة باطلة . . لا يستفيد هو شيئا . . ويرتكب الاثم ، إذن هو ظلم نفسه . . إنسان يكتب تقريرا كاذبا فى إنسان ليمنع ترقية . . أو يتطوع بحديث يختلقه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه . . أو يشى بشخص كذبا ليدخله السجن . . أو يضعه فى الاعتقال . . أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة لمجرد الانتقام التافه . . كل هؤلاء يظلمون أنفسهم . . إنهم يرتكبون الاثم فى الدنيا . . ولا يجعلون له فائدة لا فى دنياهم . . ولا فى آخرتهم . . فكأن الذى ظلم نفسه هو الذى جعلها تدخل النار . . هو الذى جعلها ترتكب الاثم . . وفى نفس الوقت لم يعطها شيئا على وجه الاطلاق . . فهو ظالم لنفسه فى الدنيا . . ظالم لنفسه فى الآخرة . . وهنا فرق بين التعبيرين . . ومن هنا لا نقول أبدا هذا عطف . . ولا ألفاظ مترادفة بل دقة بالغة فى التعبير . .

نور .. وظلمات

تعبير آخر فى القرآن الكريم .. والقرآن الكريم ملىء بالتعبيرات الدقيقة .. نجد أن الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة نور وظلام فى القرآن الكريم يقول (نور) ويقول ظلمات وظلمة .. ولكنه لا يقول أنوار .. أبدا هناك نور وظلمة .. وهناك نور وظلمات .. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يستخدم كلمة « أنوار » إنه يخرج الناس

« من الظلمات إلى النور »

.. وليس إلى الأنوار .. لماذا ؟ مع أن المنطقى أن يقال يخرج الناس من الظلمات إلى الأنوار .. نقول له .. إنك لم تع الحقيقة جيدا .. فى الدنيا هناك ظلمات كثيرة .. ولكن ليس هناك أنوار .. هناك نور واحد هو نور الله سبحانه وتعالى نور الحق .. ولذلك لا يستخدم الله سبحانه وتعالى إلا كلمة نور .. لأن النور هو نور الحق .. ولا نور غيره ..

لكل نفس هوى .. والهوى هو ظلمة .. وظلمة هذا غير ظلمة ذاك .. الإنسان فى كثير من الأحيان هو عبد لأهوائه .. والأهواء تختلف .. ومن هنا يأتى الصراع فى الدنيا .. القتل .. السرقة .. الاعتداء على الغير .. إلى آخر ما نشهده من صراع الحياة فى كل مكان ..

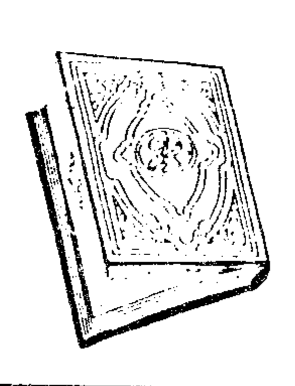
هذه ظلمات .. كل فى ظلمة مختلفة تبع هوى صاحبها .. هذا يقول كلاما .. وهذا يقول كلاما آخر .. هذا يريد أن يحقق شيئا .. وذلك يريد أن يحقق شيئا آخر .. كل إنسان يريد أن يأخذ ما لا حق له فيه .. وكل إنسان يتحدث بما يعتقد أنه يحقق له هواه .. إنسان يقول الشيوعية .. وآخر يقول الرأسمالية وثالث يقول الاشتراكية .. هذه كلها كلمات .. ووراءها هوى للنفس يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يحققه .. أن يعلو فى الأرض .. أن يستبيح مال وحرمات غيره .. أن يذل الناس بما أعطاه الله له من مركز .. أو مال .. أو سلطان ..

إذن هى ظلمات كثيرة .. كل إنسان منا له هواه .. ولكن الله سبحانه وتعالى الحق .. وهو الذى وضع النور .. ليمكن الإنسان من أن يعيش عيشة راضية مطمئنة .. هذا النهج للحياة رسمه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. أما كل ما نتخبط فيه بعيدا عن منهج الله فهو ظلمات .. ومن هنا فإن الله سبحانه

وتعالى يخرجنا من ظلمات كثيرة إلى نور واحد . . هو نوره . . هو طريقه . . هو الحق . .

الله سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة « ظلمات » يتحدث عن أهواء الناس . . وهى مختلفة . . وحين . . يستخدم كلمة نور فهو يتحدث عن شيء واحد هو منهجه . . طريقه . . ذلك هو النور . . واذا اتفقنا على خير لا يمكن أن نختلف . . لا يمكن أن تجد خلافا بين أناس فى قلوبهم الخير . . ورغبتهم إلى الخير . . وعملهم الخير لا يمكن أن يختلفوا . . ولا يمكن أن يكون الصراع والشقاء إلا على تحقيق أهواء النفس فى الدنيا . . هل عرفت الحكمة من استخدام الله سبحانه وتعالى . . كلمة ظلمات بالجمع . . وعدم استخدامه لكلمة أنوار . . لأن هناك نورا واحدا هو نور الله سبحانه وتعالى .

هذه هى بعض الأمثلة البسيطة جدا . . والقرآن ملىء بالاعجاز . . الاعجاز والدقة فى التعبير . . اللفظ فى مكانه . . فإذا تغير عن مكانه فإنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى معنى آخر . . إلى شيء آخر ليس هناك مترادفات . . وليست هناك ألفاظ لا تتسم بالدقة . . وليس هناك كلمة فى غير موضعها . . وإنما دقة متناهية فى التعبير . . دقة متناهية فى البلاغة . . ولكن بعض المستشرقين الذين يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله . . أو الذين يدرسون القرآن الكريم ليحاربوه يقولون أن فى القرآن تناقضا ويزيدون على ذلك بأن هذا التناقض طبيعى لأن قائل القرآن . . كما يدعون . . هو محمد عليه السلام . . بشر فإنه أحيانا ينسى . . وأحيانا يمر عليه الزمن فيقول عكس ما قال . . إلى آخر ما فى طبيعة البشر من عدم التذكر خصوصا فى الفترة الطويلة . ويتحدثون عن التناقض فى القرآن الكريم . . وأنا سأحدثكم عن التناقض الذى يدعونه . . فى الفصل القادم من الكتاب . .





الفصل الخامس

التناقض في القرآن الكريم

التناقض فى القرآن الكريم

السؤال الذى شغل بال المستشرقين . . وكل من يريد أن يحارب هذا الدين . . هو الادعاء بأن هناك تناقضا فى القرآن الكريم . . ولو بذل هؤلاء الناس لفهم القرآن الكريم نفس الجهد الذى بذلوه فى محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض فى القرآن الكريم لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة القرآن . . وإلى معجزة القرآن وإلى الدقة البالغة فى كلام الله سبحانه وتعالى . .

ولكن المستشرقين يحاولون أن يأخذوا من المعجزة . . أهم ما فيها وهو إنها كلام الله سبحانه وتعالى . . وفى محاولاتهم هذه يلجأون إلى إظهار ما يسمونه « التناقضات » . . أو يطلقون عليه اسم « الأشياء المتناقضة » فى القرآن الكريم . . وأساس هذا الاتجاه هو أن المعجزة وهى القرآن كلام الله سبحانه وتعالى . . وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ . . منزه عن النسيان . . منزه عن كل ما فى البشر من تناقض . . وبالتالى فإن وجود أى تناقض ولو كان ظاهريا فى القرآن الكريم يساعدهم على هدم المعجزة . . وعلى الادعاء أن هذا الكلام هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وليس منزلا من عند الله . .

ولكن الاعجاز القرآنى . . الذى هو موجود فى كل حرف من القرآن . . إنما يظهر أمامهم بهذه الصورة ليجعلهم شهداء على المعجزة . . وليجعلهم وهم يحاولون أن يحاربوا هذا الدين . . وأن يشوهوا هذا الكتاب الكريم يبينون معجزاته . . ويظهرون ما خفى منها . . إذ أنهم يثيرون مما يزعمونه أشياء تجعل العقل البشرى ينشط فى محاولة للرد عليهم . . وبالتالى فإنه فى بحثه فى القرآن الكريم تتبين المعجزة . . ويتبين أن هذا الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . .

ولنبدأ الحديث من أوله . . ماذا قال المستشرقون . . قالوا . . كلام بشر . . هل هو كلام بشر فعلا ؟ . . تعالوا نناقش ما أثاروه قضية قضية . . وإن كان هذا يحتاج إلى كتاب مستقل . .

خلق السماوات والأرض

جاءوا فى أول الأشياء بالخلق . . خلق السماوات والأرض . . شىء هو من صنع الله سبحانه وتعالى حينما يتحدث عنه فى القرآن الكريم . . فهو يتحدث

عن شيء لا يعلمه إلا الله . . وبالتالى فإن أى تناقض ظاهرى فى هذه العملية مسألة تخدم قضيتهم فى محاربة هذا الدين . . ماذا قال المستشرقون . . ؟ قالوا : إن القرآن الكريم قال فى عدة سور . . أن الأرض والسموات خلقتا فى ستة أيام . . وفى سورة فصلت : أن أيام الخلق ثمانية . . وقالوا أنها هفوة بشرية . . ونسيان . .

خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد صلى الله عليه وسلم . . وهذا هو هدفهم . . تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم فى سورة الأعراف :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام »

وقال فى سورة يونس :

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

وفى سورة الفرقان :

« الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام »

. . إذن أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تم فى ستة أيام . . لا خلاف فى ذلك ولا جدال . . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت . . حيث فصل الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض يأتى فى الآية التى تقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾

(سورة فصلت)

إذا أحصينا عدد الأيام فى السورة الكريمة . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول أنه خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها . . وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام . . ثم استوى إلى السماء . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« **فقضاهن سبع سموات فى يومين . . وأوحى فى كل سماء أمرها** »

إذا أحصينا أيام الخلق فى سورة فصلت نجد أنها ثمانية يومان لخلق الأرض . . وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها . . أيام الخلق هذه ستة أيام . . يومان آخران للسماوات إذن فهى ثمانية أيام . .

يأتى هنا المستشرقون ليقولوا أن القرآن الكريم تناقض مع نفسه . . وأنه يقول فى عدة آيات أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . . ثم يأتى ليقول أن الخلق تم فى ثمانية أيام . . ويضيفون أن هذه غفلة لأن قائله بشر . .

ولو أننا دققنا فى الآية الكريمة التى يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة فالله سبحانه وتعالى يقول :

« **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين** »

ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا . . ويجادلون فيه أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذى يستخدم هذه الآية الكريمة فى التشكيك فى القرآن الكريم هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس . . ويريدون أن يجعلوا لله أندادا . . . وهم فى الحالتين غير مؤمنين يحاربون الله . . ويحاربون دينه . . إن بداية هذه الآية معجزة . . لأن الذين يجادلون فيها . . هم أولئك الذين يحاربون هذا الدين . . ويكفرون بالله ويحاولون التشكيك . . فكون الله سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية الكريمة :

« **وتجعلون له أندادا** » . .

وقال : •

« **أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض** » .

كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا فى القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات فى محاولة التشكيك . .

ونحن نقول لهم أن من يقول هذا الكلام . . إما أن يكون متعمدا أو غافلا من مدلولات النص ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

« **أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . وتجعلون له أندادا** »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« **وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها** » .

إذن الله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن اتمام خلق الأرض . . هو يعطينا تفصيل الخلق . . فيقول خلق الأرض فى يومين . . ثم يتم بعد ذلك الحديث عن الخلق فيقول . . « وجعل فيها رواسى وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام »

مادام الحديث تتمة لنفس الشىء الذى بدأ الكلام عنه . . وهو الأرض . . أى أن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السموات . . وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض . . فهو يتم لنا زمن خلق الأرض . . فهو يقول : انى خلقت الأرض فى يومين . . ثم أتممت خلقها فى أربعة أيام . . إذن فمدة الخلق ، كلها بالنسبة للأرض هى أربعة أيام . . **وليست** ستة .

ولنضرب مثلا يقرب ما نقوله للأذهان . . إذا فرض أننى ذاهب إلى الاسكندرية . . وأن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا . . فأنا أقول أن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا بعد ساعة . . وفى الاسكندرية بعد ساعتين ونصف . . فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والاسكندرية ثلاث ساعات ونصف أبدا . . المسافة بين القاهرة والاسكندرية هى التى ذكرتها مؤخرا . . أما الساعة التى سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف . . لماذا ؟ . . لأن طنطا جزء من الطريق بين القاهرة والاسكندرية . . والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض . . فهو يقول سبحانه وتعالى . . انى خلقت الأرض فى يومين . . ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسى من فوقها . . وباركت فيها أقواتها فى أربعة أيام . . كأن الأيام الأربعة هى كل الفترة التى استغرقتها . . عملية خلق الأرض . . منها يومان لخلق الأرض . . ويومان لاتمام الخلق بأن جعل لها الله سبحانه وتعالى رواسى من فوقها . . وبارك فيها أقواتها . . المدة كلها هى أربعة أيام . . وليست ستة أيام . . الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسر لنا أنه خلق الأرض فى يومين ثم أتم خلقها بكل ما فيها من أقوات ورواسى بما فى ذلك خلق الأرض نفسها أربعة أيام . . فكأن اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة التى استغرقها خلق الأرض . . مثل بالضبط

عندما تقول أن القطار يستغرق من القاهرة إلى الاسكندرية ساعتين ونصفا .. وبين القاهرة وطنطا ساعة .. المسافة كلها ساعتان ونصف .. ولكنك أردت أن تفصل الجزء من الكل .. فذكرت بالتفسير جزءا من الكل .. وليس معنى هذا أن هذا الجزء اضافة الخلق .. هذا جزء من الكل نستخدمه جميعا فى حياتنا اليومية كل يوم .. أقول وضعت أساس العمارة فى ثلاثة أشهر .. وأتممت بناءها فى عام .. هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاما وثلاثة أشهر .. لا .. لقد أتممتها فى عام .. ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء .. هنا تحدثت بالتفصيل .. والجزء من الكل .. ليس منفصلا .. ولا زائدا عنه .. تقول هذا المشروع تتم مرحلته الأولى فى عام .. وينتهى فى عامين .. هل معناه أنه يستغرق ثلاثة أعوام .. لا .. عامين .. لأن المرحلة الأولى هى جزء من الكل ..

تفصيل الخلق

والله سبحانه وتعالى لم يفصل لنا فى الآيات السابقة مراحل الخلق ولكنه أتى به مجملا .. إنما فى سورة « فصلت » .. تحدث أولا عن خلق الأرض .. خلق الأرض نفسها فى يومين .. ثم أتم الخلق بأن جعل فيها رواسى .. وبارك فيها أقواتها فى أربعة أيام .. هذه مرحلة خلق الأرض .. استغرقت أربعة أيام .. ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** » ..

هنا انتقل الله سبحانه وتعالى من عملية خلق الأرض إلى خلق السماء .. فقال تعالى :

« **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** » ..

مرحلة جديدة بعد إتمام خلق الأرض .. إن إتمام خلق الأرض استغرق أربعة أيام .. وخلق السماوات يومين .. فأيام الخلق ستة .. وهما من أيام الله سبحانه وتعالى ..

« **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** » ..

وهكذا نجد أن التناقض وهمى .. وأن المستشرقين أرادوا أن يستغلوا عملية تفصيل الخلق التى أوردها الله فى سورة فصلت ليشككوا فى القرآن .. وكان الله عليما قبل أن يبدلوا .. تبدأ الآية الكريمة بقوله :

« أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين . . وتجعلون له أندادا »
بدأها بهذا الكلام ليقول لنا من هم الذين سيجادلون فى هذه الآية وينشرونها بالطريقة التى تهواها أنفسهم للأضلال عن سبيل الله .

الود . . والمعروف

نأتى بعد ذلك إلى شىء آخر . . قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

(سورة المجادلة)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى . .

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

يأتى المستشرقون . . وكل من يحاول التشكيك فى هذا الدين يقولون ما هذا ؟ فى الآية الأول . . الله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نود من حاد الله ورسوله . . ولو كانوا آباءنا . . وفى الآية الثانية فى سورة لقمان يقول :
« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » . .
إذن فى الآية الأولى يقول لا تودهم . . وفى الآية الثانية يقول وصاحبهما معروفا . . كيف يمكن أن يستقيم ؟ أمران مختلفان فى نفس الشىء . .
نقول أنه ليس هناك أى اختلاف . . ولكنك لا تفهم دقة تعبير القرآن الكريم . . واللفظ فى القرآن الكريم . .
ولنشرح ذلك بالتفصيل . . المعروف يفعله الرجل لمن يحبه بقلبه . . ومن

لا يحب . . ذلك أنك يمكن أن تسير فى الطريق تجد إنسانا لا تعرفه . . ولا تربطك به أى علاقة . . ولكنك تجده فى مأزق فتسدى إليه معروفا لتنقذه . . كأن يكون قد فقد حافظة نقوده مثلا فتعطيه مبلغا من المال ليصل إلى منزله أو تقدم له معونة . . قد يكون جائعا فتطعمه ثمن الطعام . . أنت هنا تفعل معروفا عسى الله أن يجزيك عنه . . لا يربطك بالإنسان الآخر أى صلة . . هذا هو المعروف . . ولكن المودة مكانها القلب . . هى فى القلب . . أنت لا تود إلا من تحب . . لا تريد أن تجلس أو تعيش إلا مع من تحب . . المعروف لا يمس القلب . . ولكن المودة تمس القلب . . القلب فى المودة يكون مع الشخص . . والقلب فى المعروف لا يكون معه . . وإذا كان القلب مع إنسان غير مؤمن فهو قلب غير مؤمن . . والله لا يجعل لك قلبين فى صدرك . مصداقا لقوله تعالى :

« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

إنما امتداد المعروف هو رضاء الله سبحانه وتعالى . .

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة . . الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة المجادلة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » . .

هنا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة الود . . وكلمة الود هى التى تمس القلب . . هنا لا تجد مثلا إنسانا مؤمنا يحب إنسانا يحارب الله ورسوله . . حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم . . الحب من داخل القلب . . من داخل النفس . . ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فى مسألة الوالدين . . وينهانا إن حاولا أن يمسا الإيمان فى قلوبنا أن نستخدم العنف ضدهما . . أو نفعل أى شىء . . وهم فى هذه الحالة يكونون فى سن كبيرة . . ضعفاء . . اقتربوا من نهاية العمر . . هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا . . وبالسهر علينا . . يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نحتفظ لهم بالود أن كانوا مؤمنين . . وبالحب الكبير . . وإذا حاولوا أن يدخلوا الشرك إلى قلوبنا . . أو حاولوا أن يجعلونا نشرك بالله سبحانه وتعالى . . يطالبنا بألا نطعهما . . ولكن نصاحبهما فى الدنيا معروفا . . أدب القرآن الكريم . . نفعل ذلك ارضاء لله سبحانه وتعالى . . ومكافأة للجميل . . ولكن القلب لا يودهم . . المعروف لمن تحبه ومن لا تحبه . . أما الود فلمن تحب فقط . . أنت حين تسدى لهما معروفا . . أى تعاملهما معاملة

حسنة . . ولكن ليس بقلبك . . لأنهما يحاولان أن يدفعاك للشرك . . تفعل ذلك ارضاء لله سبحانه وتعالى الذى يأبى ألا أن يكون رحيما حتى مع من يعصاه . . والذى ينهانا عن أى نقابل الإحسان بالإساءة . . والمعروف شيء . . والود شيء آخر تماما . .

أين هو التناقض الموجود . . هذه حالة . . وهذه حالة أخرى . . قلب مع الله لا يدخل فيه كافر . . ولا من يحاول أن يشرك به . . أما المعروف الذى أسديه إلى **والدىَّ** فأمرنى **الله** به . . رحمة بهما . . كما ربيانى صغيرا . إذ أن مناقشة الإيمان بين الابن ووالديه . . لا تتم إلا إذا بلغ الابن مرتبة الرجولة . . وفى هذه الحالة يكون الأم والأب قد بلغا مرحلة الكهولة . . **وعلىَّ** أن أعاملهما بالمعروف ردا للجميل . . وارضاء لله سبحانه وتعالى الذى لا يقبل الجحود . . لكن المعروف ليس بقلبى . . وهذا مختلف تماما عن ذلك . .

لماذا . . الأم وحدها

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة . . فالآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . . نجد أن الله سبحانه وتعالى يوصى بالوالدين . . ثم لا يذكر إلا الأم . . مثلا فى سورة الأحقاف :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾

(سورة الأحقاف)

وفى سورة لقمان :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ

أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

(سورة لقمان)

نجد أن الله سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين .. ثم ذكر الأم وحدها دون الأب .. يأتى هنا بعض المستشرقين ويسألون : كيف أن الله سبحانه وتعالى لم يوص إلا بالأم .. ثم ذكر فى أول الآية الأم والأب .. وفى آخر الآية الأم والأب .. دون أن يوصى بالأب .. ثم الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية يوصى من ؟. هل هو يوصى الطفل وهو رضيع فى حالة الحمل والولادة .. وهل يفقه هذا الطفل شيئا .. وهل يقرأ القرآن أو يعقل .. هل يذكر الطفل شيئا عن هذه المرحلة .. إذن من يخاطب القرآن ..؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع .. فهو يخاطب إنسانا لا يعقل .. وإذا كان يخاطبه بعد أن كبر فهو يخاطب إنسانا عن فترة لا يتذكرها .. ولا يعرفها ..؟!!

نقول له انك لم تفهم هذه الآية .. فالله سبحانه وتعالى فى توصيته بالأم قد اختصها لأنها تقوم بالجزء غير المنظور فى حياة الابن أو غير المدرك عقلا .. بمعنى أن الطفل وهو صغير فى الرضاعة .. وفى الحمل والولادة .. وحتى يبلغ ويعقل .. الأم هى التى تقدم كل شيء .. هى التى تسهر ترضعه .. وهى التى تحمل .. وهى التى تلد .. فإذا كبر الطفل وعقل من الذى يجده أمامه ؟ أباه .. إذا أراد شيئا فإن أباه هو الذى يحققه له .. إذا أراد أن يشترى شيئا .. لعبة جديدة .. ملابس جديدة .. إذا أراد مالا .. كل هذا يقوم به الأب .. إذن فضل الأب ظاهر أمامه .. أما فضل الأم فهو مستتر .. ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب .. لماذا ؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته .. يحس بفضل أبيه عليه .. ولكنه نادرا ما يقدر التعب الذى تعبته أمه .. وهو يزيد أضعاف أضعاف ما يقدمه له أبوه .. ومن هنا جاءت التوصية بالأم .. حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمك .. أمك .. أمك .. ثلاث مرات .. ثم قال أبوك .. ولكن ما هو الهدف من هذا التذكير إذا كان الإنسان لا يعقل هذه الفترة .. لا يتذكرها من حياته مطلقا .. الهدف هو أن يرى ذلك على غيره .. ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتعبن .. وكيف يعانين .

ويقاسين .. وكيف يسهرون على أطفالهن .. وماذا يتحملن من مشقة .. وعندما يراه على غيره يدرك أن هذا قد حدث له .. ويحس به .. ولذلك يرد الجميل .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم .. ويريد أن يوصينا بالاثنين معا .. الأب والأم .. ولكنه يوصينا بالأم .. ويخصها بالذكر أكثر .. لأن تعبها غير واضح فى عقل الابن .. بينما الأب ما يفعله واضح وظاهر أمام الطفل .. هذا هو الهدف من الآية الكريمة ..

اتى فلا تستعجلوه

ويمضي المستشرقون فى الحديث عن القرآن الكريم فيقولون انه فى سورة النحل يقول القرآن :

« اتى أمر الله فلا تستعجلوه »

كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى .. اتى ثم يقول لا تستعجلوه .. اتى فعل ماض .. لأنه حدث .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يمضى هذا مع ذلك .. نقول لهم أنت حين تتحدث عن الله سبحانه وتعالى .. فيجب أن تضع فى عقلك وذهنك وتفكيرك إن الله ليس كمثله شيء .. أنت لك قوة .. ولله قوة .. ولكن هل قوتك كقوة الله سبحانه وتعالى ! أنت لك قدرة ولله قدرة .. ولكن هل قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى .. أنت تعيش فى الزمن .. والله سبحانه وتعالى لا زمن عنده .. انه منزه عن الزمن .. اتى هذه فى علم الله سبحانه وتعالى .. حدث .. ومتى .. قال الله سبحانه وتعالى اتى فقد حدث وتم .. وانتهى فى علم الله سبحانه وتعالى .. فى علم اليقين .. ولكن الأشياء تخرج من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم البشر .. تخرج بكلمة كن .. الله سبحانه وتعالى حين يريد أن ينقل شيئا من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم الإنسان .. فإن كلمة « كن » .. تكون الأمر الذى يحمل التنفيذ ..

الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة .. ومادام قد تقرر .. فليست هناك قوة فى هذه الدنيا تستطيع أن تمنع حدوثه .. إنه لا محالة .. فلا تطلبوه بكلمة كن .. وأنتم فى عجلة .. لماذا ؟ لأن المؤمن الحقيقى إذا كان يخشى شيئا فإنه يخشى يوم الساعة .. ويوم الحساب .. وإذا كان يخشى شيئا .. يخشى عدل الله سبحانه وتعالى .. الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها :

« ووجدوا ما عملوا حاضرا »

الصغيرة قبل الكبيرة .. وإذا كان لا يترك شيئا صغيرا فماذا يفعل فى الكبائر .. والإنسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه .. إنه يرتعد من هول ذلك اليوم .. أما الإنسان الكافر المتحدى فإنه هو الذى عن جهل .. وعن عدم ادراك .. لا يعرف معنى الآخرة .. ولا معنى الحساب .. ومن هنا فهو يستعجل .. يريد أن يصل إلى الآخرة .. ولو علم ما فيها .. وما ينتظره فيها .. لما ذكرها على لسانه .. فحينما يقول الله :

« اتى أمر الله »

أى أن الساعة تقررت .. وانتهى أمرها .. تم الأمر فلا تستعجلوه لا تتعجلوا يوم الحساب .. انكم تجهلون ما فيه من أهوال .. إذن فهى بالنسبة لله تم وانتهى .. ولكنه بالنسبة لى أنا مستقبل .. فليس هناك أى تناقض بين استخدام الماضى والمستقبل .. لأن اتى أمر الله فى علم الله سبحانه وتعالى .. ولكنه فى علمى أنا .. وفى ادراكى أنا .. وحتى يصل إلى أنا لايزال مستقبلا حينما يقول الله كلمة « كن » وينفخ فى الصور .. وهل يملك إنسان أن يمنع الله سبحانه وتعالى من تنفيذ أمر قدره .. لا قدرة فوق قدرة الله .. من الذى يمنع أمر الله يأتى مادام قد قال « اتى » أنت لا تملك مقومات الغد .. ولكن الذى يملك مقومات الغد هو الله سبحانه وتعالى اتى .. إذن فقد تم فعلا .. ولكنه محجوب عنى .. لذلك قال تعالى :

« فلا تستعجلوه »

هل رأى محمد ؟

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى .. يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفيل مخاطبا محمدا صلى الله عليه وسلم ..

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل »

بعض المستشرقين يقول هذا قصور فى التعبير .. « ألم تر » هل رأى محمد عليه السلام عام الفيل .. لقد ولد فى عام الفيل .. إنه لم ير .. لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم .. لقلنا علم عن غيره .. فالعلم قد تحصل عليه أنت .. وقد تحصل عليه عن طريق من علمه من غيرك من البشر .. ولكن الله

سبحانه وتعالى حين يقول ألم تر . . يقول المستشرقون فى هذا . . إن التعبير قد خان محمدا عليه السلام . . فهو لم ير . . وقوله ألم تر مجافاة لحقيقة واقعة ثابتة .

ولكن الذى فات هؤلاء إن هذه قضية من قضايا الإيمان . . ما يقوله الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن . . هو رؤية صادقة . . والقرآن هو كلام متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل . . فعندما يقول الله « ألم تر » . . معناها أن الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله . . ذلك لأن الرؤية هنا رؤيا معجزة كبرى . . والله يريدها أن تثبت فى عقولنا . . كما تثبت الرؤية تماما . . لماذا ؟ لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هى إن الله سبحانه وتعالى فى معجزة قد خلق من الضعف قوة . . وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا الله .

أنا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفا . . على أن يحمل حملا ثقيلا . . بأن أحمل عنه هذا الحمل . . ولكنى لا أستطيع ولا أقدر أن أجعل هذا الرجل الضعيف قويا . . بحيث يقوم هو بنفسه بحمل هذا الحمل الثقيل . . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يستطيع أن يخلق من هذا الضعيف الذى لا حول له ولا قوة قويا يهزم أقوى أقوياء العالم . . وأقوى ملوك الدنيا . . وهو إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة . . هذه هى احدى معجزات الله . . ومن هنا فإن الذى حدث فى عام الفيل . . أن طيرا أبابيل تمسك فى مناقيرها حجارة صغيرة جاءت . . وهزمت جيشا من الأفيال . . أقوى جيش فى العالم . . فى ذلك الوقت . . ولو اننى عقلا ومنطقا قلت لإنسان أن طيرا . . أو مجموعة من العصافير قد هزمت فيلا لسخر منى . . ذلك أن الفيل يستطيع أن يهلك مئات الطيور دون أن يصاب بأذى . . بل أن الطير يقف على ظهر الفيل . . فلا يحس الفيل به . . فكيف يكون هذا الطير يأتى وكونه يفنى هذا الجيش العظيم . . فقد استخدم الله أضعف مخلوقاته . . ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته . . وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يد الله سبحانه وتعالى .

بل ان بعض العلماء قد أخذ يتشكك فى هذه الناحية من كثرة ما تناولها المستشرقون . . فادعى أو قال بعضهم إن الذى فتك بجيش أبرهه . . هو الأمراض والجراثيم التى سلطها الله على هذا الجيش . . وأنا لا أتفق مع هذا المعنى . . فعام الفيل حدث عند مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ورسول الله بعث فى الأربعين من عمره . . أى أنه فى ذلك الوقت كان هناك من

هم فى سن الخامسة والخمسين .. والستين .. والخامسة والستين .. والسبعين .. ومن هم فوق ذلك .. ممن رأوا عام الفيل .'. رأى العين .. ولو انه لم تأت هذه الطير .. ولو انه لم تلق بحجارة من سجيل .. ولو انها لم تجعل هذا الجيش عصفا مأكولا .. وهو ما يحتاج إلى أسابيع بالنسبة لأى جسم حيوانى .. أو بشرى .. لكان هؤلاء الناس قد قاموا وقالوا ان ما يقوله محمد غير صحيح .. لقد شهدنا عام الفيل .. ولم نر طيرا تأتى .. ولم نرها تفنى أعظم جيش بأحجار صغيرة تحملها فى مناقيرها .. ولم نر هذا الجيش يتحول إلى عصف مأكول فى لحظات .. فلأن أحدا لم يستطع أن يكذب هذه الواقعة .. وقت نزولها ممن رأوها .. دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم .. وليست محتاجة إلى تفسير لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء .. ومن هنا فإنه فى القضايا الإيمانية يكون كلام الله سبحانه وتعالى هو الرؤية الدائمة التى تتمثل أمامنا .. والتى تتكرر باستمرار فى الحياة .. فكم من ضعيف نصره الله على أقوى الأقوياء .. وكم من قوى خذله الله وجعل نهايته على يد أضعف الضعفاء . كلام الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن .. هو يقينى بمثابة الرؤية الدائمة .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى « ألم تر » .. ولم يقل رأيت .. أو علمت .. « ألم تر » حاضر متجدد مستمر يحدث وسيحدث على مر السنين إلى يوم الساعة .. إنه قضية الحق ينصر الله المظلوم على الظالم .. مهما كانت قوة الظالم ، ومهما كان ضعف المظلوم .. تلك قضية إيمانية كبرى يجب أن تراها فى قلبك إذا كنت مؤمنا .. وتراها رؤية اليقين « ألم تر » .. هذا هو الإيمان .. وهذه هى الحكمة فى استخدام كلمة « ألم تر » .. تجعل المؤمن يحس بقوة الله وقدرة الله فى كل ما يحدث .. بالنسبة للحق والباطل .. وقضايا الحق .. وقضايا الباطل .. حتى قيام الساعة ..

من هم الكاذبون ؟

ونمضى لنقابل ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم .. التناقض الذى يدعون إنه موجود فيه .. وهم فى كل ما يثيرونه اظهار لاعجاز القرآن الكريم .. قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المنافقون :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾

(سورة المنافقون)

يقول المستشرقون إن المنافقين قد شهدوا أن محمدا رسول الله . . وأن الله يعلم أن محمدا رسوله . . ويعلم أيضا أن المنافقين كاذبون . . كيف يكون المنافقون كاذبين وهم شهدوا بما شهد به الله . . كيف تكون الشهادتان متفقتين . . فى أن محمدا رسول الله ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين . . مع اتفاق ما شهدوا به . . مع علم الله . . مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع . . فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع ؟ هذا تناقض . . هكذا يقول المستشرقون . .

نأتى بعد ذلك إلى معنى الآية الكريمة . . هم أى المنافقين قالوا :

« نشهد إنك لرسول الله . . والله يعلم إنك لرسوله »

إذن فهى قضية صادقة . . فكيف يقول الله سبحانه وتعالى إن المنافقين كاذبون ؟ هل التكذيب هنا يقع على انك : لرسول الله لا . . محمد رسول الله هذا صدق . . التكذيب هنا يقع على كلمة « نشهد » لأنهم قالوا . . نشهدوا إنك رسول الله . . فالتكذيب وارد على كمة نشهد لأن معنى الشهادة . . إننا نقول بألسنتنا ما فى قلوبنا . . والله يعلم إن ما فى قلوبهم يخالف ما يقولونه بألسنتهم . . إذن فقولهم « **نشهد إنك** » . . كلمة نشهد . . هم كاذبون فيها . . كاذبون فى أمر الشهادة . . لأنهم لا يشهدون . . ولا يؤمنون . . إن محمدا لرسول الله . . إنما جاءوا لينافقوا بهذا الكلام . . لا عن صدق . . ولكن عن نفاق . . محمد رسول الله لا تكذيب فيها . . ولكن التكذيب منصب على كلمة « نشهد » . . فى ذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« والله يعلم إنك لرسوله »

وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به . . فرق بين تكذيب الشهادة . . وبين تكذيب المشهود به . . المشهود به إنك رسول الله صحيح مائة فى المائة . . ولكن شهادة المنافقين هى المكذبة . . ومن هنا ترى دقة التعبير فى القرآن الكريم .

السؤال ليس للعلم

نأتى بعد ذلك إلى اعجاز آخر من اعجاز القرآن الكريم .. إن الله يقول فى سورة الرحمن :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

.. ويقول فى سورة الصافات :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

فى الآية الأولى هناك نفى للسؤال .. وفى الآية الثانية هناك اثبات للسؤال .. كيف يكون ذلك .. هنا يأتى المستشرقون ليقولوا هذا تناقض فى القرآن الكريم .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى :

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

« وقفوهم إنهم مسئولون »

هذا تناقض .. محمد نسى ..

نقول لهم انكم تقولون ذلك لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال .. والسؤال نوعان .. نوع تسأله لتعلم .. ونوع تسأله ليكون المسئول شاهدا على نفسه .. التلميذ حين يسأل أستاذه .. يسأله ليعلم .. ليعرف العلم .. ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه .. هل يسأله ليتعلم أو ليعلم .. لا .. فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف تلميذه .. ولكنه يسأله ليكون التلميذ شهيدا على نفسه .. لا يستطيع أن يجادل .. أو يقول : لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفا .. الأسئلة فى الامتحانات مثلا لا تقوم وزارة التعليم بوضعها .. لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة .. فتريد أن تستزيد منهم علما .. ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فلا يستطيع أن يجادل .. ورقة الإجابة موجودة وهى شاهد على درجة الطالب .. إن كان ممتازا أو ضعيفا .. أو لا يعرف شيئا على الاطلاق ..

فالآية الكريمة ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »

تنفى السؤال للمعرفة .. والله أعلم بذنوبهم .. الله سبحانه وتعالى يعلم .. وبالتالى فهو غير محتاج .. لأن يسأل للعلم .. وغير محتاج لأن يعرف منهم .. لأنه أعلم منهم .. ومن هنا لا سؤال .. لأن السائل أعلم من المسئول ..

فلا يكون السؤال للعلم .. ولذلك يقول الله :

« **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** »

أما فى الآية الثانية « **وقفوهم انهم مسئولون** » .. أى انكم ستسألون لتقرروا الحقيقة والواقع فى الحساب .. لا لتقولوا شيئا لا يعلمه الله .. لتكونوا شهداء على أنفسكم .. وهذا ما تفسره الآيات التى قبلها .. والتى بعدها .. فإذن أين هو التعارض .. وأى تناقض هذا الذى زعمه المستشرقون فى القرآن .. فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذبين .. لذلك تقول السورة :

« **قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون .. احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم .. وقفوهم انهم مسئولون** »

السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن انهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم .. هذا الذى كنتم به تكذبون .. هذا ما عبدتم من دون الله .. والآن جاء وقت الحساب .. لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة .. أين ماكنتم تعبدون من دون الله .. يسألهم عما كانوا يعبدون من دون الله .. ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« **ما لكم لا تناصرون** »

لماذا لا ينصركم أحد .. لماذا لا تنصركم الهتكم .. السؤال هنا ليس للعلم .. ولكن ليكونوا شهداء على أنفسهم ..

يحملون أوزار غيرهم

ننتقل بعد ذلك إلى آية أخرى .. يقول المستشرقون إن الله سبحانه وتعالى قال فى سورة الأنعام :

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** »

وفى سورة فاطر :

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** »

وفى سورة النجم :

« **ولا تزر وازرة وزر أخرى** »

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت ويقول :

« وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم »

.كيف يمكن أن يحدث ذلك .. الله قضى بأنه لا تزر وازرة بأخرى ثم هنا يقول .. وليحملن أثقالا مع أثقالهم أى أوزارا مع أوزارهم أليس هذا تناقضا .. لقد نسى محمد .. هكذا هم يريدون أن يقولوا .. ولكنهم يجهلون اعجاز القرآن فى التعبير .. نقول لهم انه :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

معناها أن كل إنسان يحمل ذنبه .. ولكن بعض الناس يوم القيامة يحملون ذنوبا مع ذنوبهم .. من هم .. المضلون الذين يأتون فى الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيل الله .. الوزر فى الآية الأولى هو وزر الضلال .. فإذا كنت أنا ضالا .. وأنت ضال .. وفلان ضال .. كل منا يحمل وزره على نفسه .. فكل منا يحمل ضلاله ووزره .. فمن هنا فإنه لا يحمل ضال وزر ضال آخر .. ولكن هناك الضال .. وهناك المضل .. الضال هو من يضل الطريق .. يكفر بالله سبحانه وتعالى .. هذا هو الضال .. أما المضل فإنه لا يكتفى بأنه هو فى الضلالة .. لكن يضل غيره .. أى يأتى إلى رجل مؤمن .. ويحاول أن يفسد إيمانه .. يأتى إلى إنسان يتطلع إلى الله .. يحاول أن يجعله يكفر .. وربما ينجح فى ذلك .. هؤلاء الناس « المضلون » لا يحملون أوزارهم فقط .. ولكن لهم نصيب من كل وزر يرتكبه الذين أضلوهم .. مصداقا للآية الكريمة فى سورة النحل :

« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة .. ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم »

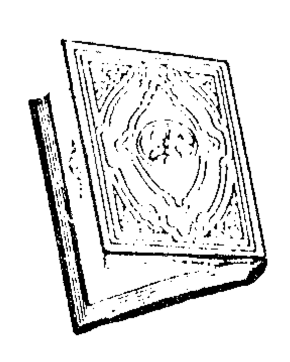
إذن من يضل الناس .. ويعمل على نشر الكفر والالحاد .. والذين لا يكتفون أنهم هم فى الضلالة .. وحدهم ولكنهم يريدون أن يضلوا غيرهم .. لهم نصيب من كل وزر يقوم به أولئك الذين أضلوهم .. فأنا مثلا حين آتى بإنسان لا يشرب الخمر .. وأظل أغريه حتى أجعله يشرب الخمر .. وأقدمها له .. وأغريه بها .. له وزر لأنه عصى الله وشرب الخمر .. ولى وزر لأننى أضللته وساعدته على المعصية .. وظللت أزينها له حتى وقع فيها .. ومن هنا فإن الآية الأولى التى تقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .. يقصد بها الضالين .. أما الآية الثانية التى تقول :

« وليحملن أثقالهم .. وأثقالا مع أثقالهم »

التناقض فى القرآن الكريم

يقصد بها المضلين الذين يضلون عن سبيل الله . . فلهم نصيب من أوزارهم أولئك الذين أضلوهم . . والذين اتجهوا بهم إلى الكفر والاثم والعصيان . .

هذه بعض التناقضات التى يحاول المستشرقون أن ينالوا بها من القرآن الكريم . . وأن يقولوا انه قول بشر . . ولقد أوضحنا هذه التناقضات بشكل يظهر اعجاز القرآن فيها . . فلا تناقض فى القرآن أبدا وإنما بلاغة ودقة فى التغيير . . تجعل اللفظ والمعنى منسجمين تماما . . لا يبتعدان عن بعضهما البعض . . ولا يؤديان إلا نفس المعنى المقصود بالنسبة لمقتضيات الحال . . على أن المضلين . . أو عددا من المستشرقين لا يكتفون بذلك . . لا يكتفون بالقول بأن هناك تناقضا . . بل يقولون إن هناك تناقضا بين قوانين الكون وبين القرآن الكريم . . وفى هذا افتراء كبير . . وهذا هو موضوع الفصل القادم الذى سنتحدث فيه عن « القرآن . . وقوانين الكون » .



الفصل السادس

القرآن وقوانين الكون

القرآن وقوانين الكون

هناك كثير من دواعي الاعجاز في القرآن الكريم لا يتنبه إليها العقل إلا بعد أن يبحث ويعيش وينشط .. هذا الاعجاز يظهر في دقة التعبير في القرآن الكريم .. ثم يظهر بطريقة أكثر وضوحا فيما يحاول بعض المستشرقين أن يدعوه على القرآن من ادعاء بالتناقض ..

ولقد تحدثت في الفصول الماضية عن الاعجاز في بلاغة القرآن الكريم .. ثم تحدثت عن الاعجاز فيما يدعونه من تناقض القرآن الكريم .. والآن أنتقل إلى قضية يحاول البعض اثارتها ..

حين فشلت قضية التناقض جاءوا بشيء اسموه تصادم القرآن الكريم .. وحقائق الكون .. وادعوا أن بعض آيات القرآن تتصادم مع الحقائق الكونية .. وهذا افتراء .. فلا يمكن أن يتصادم القرآن مع أية حقيقة كونية .. لماذا ؟

لأن القائل هو الخالق .. ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه .. ولكن الهدف من الطعن في القرآن الكريم ـ ويجب أن نفطن لذلك ـ هو محاولة الايهام بأن القائل بشر .. وسنناقش في هذا الفصل بعض ما يقال عن تصادم القرآن الكريم وحقائق الكون ..

قبل أن نبدأ يجب أن نتنبه إلى أن القرآن الكريم له عطاء متجدد .. وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن .. ولو أفرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله في عدد من السنوات .. أو في قرن من الزمان .. لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء .. وبذلك يكون قد جمد .. والقرآن لا يجمد أبدا .. و إنما يعطي لكل جيل بقدر طاقته .. ولكل فرد بقدر فهمه .. ويعطي للجيل القادم شيئا جديدا لم يعطه للجيل الذي سبقه .. وهكذا ..

ولهذا ندرك كما ذكرت من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تنزل عليه القرآن لم يتعرض بالتفسير إلا لما تقتضيه أحكام هذا الدين في « افعل ولا تفعل » .. الأشياء التي إذا فعلتها نجوت .. وإذا لم أفعلها عوقبت .. أما ما هو متصل بقوانين هذا الكون مما سيكشفه الله من علم البشر في المستقبل .. وما سيظهر بعد ذلك للعالم .. فلم يتعرض له التفسير .. لماذا .. لأن العقل في ساعة نزول القرآن لم يكن عنده الاستعداد العلمي ليفهم حقائق الكون ..

ولذلك أخذ منها قدر حجمه . . وأعطاه القرآن ما يعجبه ويرضيه . . ثم مرت السنوات أو القرون . . وظهرت حقائق علمية حديثة . . فتبين لنا أن عطاء القرآن فيها كان عطاء متجددا . .

القرآن . . والنظريات العلمية

ولكن قبل أن نمضى فى التحدث عن حقائق الكون . . فإننا يجب أن نجيب على سؤالين هامين . . السؤال الأول :

هو محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية . . وهذا أخطر ما نواجهه . . . ذلك أن بعض العلماء فى اندفاعهم فى التفسير وفى محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمى . . يندفعون فى محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة . . يثبت بعد ذلك أنها غير صحيحة . . وهم فى اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة . . ويحاولون اثبات القرآن بالعلم . . والقرآن ليس فى حاجة إلى العلم ليثبت . . فالقرآن ليس كتاب علم . . ولكنه كتاب عبادة . . ومنهج . . ولكن الله سبحانه وتعالى فى علمه علم أنه بعد عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم . . سيأتى عدد من الناس . . ويقولون انتهى عصر الإيمان . . وبدأ عصر العلم . . ولذلك وضع فى قرآنه ما يعجز هؤلاء الناس . . ويثبت أن عصر العلم الذى يتحدثون عنه قد بينه القرآن فى صورة حقائق الكون . . بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرنا . . ولم يكتشف العقل البشرى معناها إلا فى السنوات الماضية . . ولقد قلت أن عطاء القرآن الكريم متجدد مصداقا للآية الكريمة :

« **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » . .

ويجب أن نتنبه هنا إلى حرف السين فى كلمة « سنريهم » لأن معناها المستقبل . . والمستقبل هنا لا ينتهى . . بل أن عطاءه مستمر لهذا الجيل والجيل الذى بعده . . والجيل الذى بعده . . إلى يوم القيامة . . ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلمنا أن هناك حقائق وآيات سيكشف عنها لكل جيل . . ولكن ليس معنى هذا أن نحمل معانى القرآن أكثر مما تحتمل . . وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بعلوم الدنيا . . فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة . . أو علم الفلك . . أو علم الفضاء . . إلى آخر هذا . . ولكن

القرآن وقوانين الكون

القرآن يبدأ من أول سورة بعد الفاتحة .. وهى سورة البقرة ..

« **ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** » .

أى أنه كتاب هدى .. ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فى كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة .. ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التى أنبأنا الله بها فى القرآن الكريم .. والتى نعرف بعضها .. وبعضها لا نعرفه معرفة اليقين حتى الآن .. أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفحم بها أولئك الذين يقولون انتهى عصر الإيمان .. وبدأ عصر العلم .. وإن يقول لنا إن العلم الذى يحاول بعض المضلين أن يتخذوه إلها جديدا هو من علمى ومن خلقى .. فلا تعبدوا المخلوق .. وتتركوا الخالق .. ولكن هذا يجعلنا نتخذ العلم دليلا على صحة القرآن .. بل أن القرآن هو الدليل الحقيقى على صحة .. أو عدم صحة العلم .. فالعلم الذى يتناقض مع القرآن الكريم كاذب وغير صحيح ..

والقرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. لا تغيير فيه ولا تبديل .. ومن هنا فإن خطورة ربط القرآن الكريم بنظرية علمية كاذبة .. وما أكثرها .. تجعل موقف المفسر فى حرج عندما يثبت كذب هذه النظرية .. فهو لا يستطيع أن يغير أو يبدل فى كلام الله .. ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى نثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم ولا نأخذ حديثا براقا يكون مجرد فرض .. وليس نظرية علمية .. ونسرع ونربطه بكلام الله .. وحينئذ نكون قد ارتكبنا خطأ كبيرا فى حق القرآن عندما يثبت كذب هذا الافتراض ..

لماذا .. تركها بلا تفسير

هذه واحدة .. أما الثانية فهى : لماذا لم يفسر القرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن .. وربما لأجيال بعدهم ؟!

المعروف أن حقائق الكون التى أعلنها الله فى القرآن الكريم تمس قوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها .. فالشمس .. ودوران الأرض .. والجاذبية الأرضية .. والليل والنهار .. وكل ما يتعلق بهذا الكون .. وعلم الأجنة وما يدور فى الأرحام .. وكل ما يتعلق باستمرار النوع

البشرى . . كل ذلك من قوانين الكون . . وقوانين الخلق ينتفع بها الناس سواء علموا بها أو لم يعلموا . . الملايين لا يعرفون شيئا عن النظام الكونى . . والتوازن الدقيق الموجود فيه . . ومع ذلك ينتفعون به . . والملايين لا يعرفون شيئا عن جاذبية الأرض . . ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها . . والملايين لا يعرفون شيئا عن حياة الطفل فى رحم أمه . . ومع ذلك فإن عدم العلم لم يمنعهم من إنجاب الأطفال . .

ومن هنا لم يكن تفسير مثل هذه القضايا العلمية المتقدمة التى ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله . . لأنهم ينتفعون بها . . سواء علموها أو جهلوها . . ولذلك أعطاهم الله على قدر عقولهم . . ثم فسر بعد ذلك للأجيال . . كل جيل على حسب عقله . .

نعود بعد ذلك إلى قول المستشرقين . . هم يقولون أن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم . . ونحن نؤكد لهم أن العلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن . . إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون . . أو مع خلق الكون . . ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى أحيانا عن حقيقة قرآنية أسىء تفسيرها . . لتبدو فى غير معناها الحقيقى . . أو حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن . . وكما قلت أعود فأكرر . . اننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم . . بل أن العلم هو الذى يجب أن يثبت . . ويلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم . . ذلك أن القرآن أصدق من أى علم من علوم الدنيا . . ومن أى عالم فى هذا العالم . . لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر . . وقائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا كما قلت فإننى لا أحاول أن أثبت القرآن بالعلم الأرضى . . ولكننى أرد على الذين يقولون أن هناك تناقضا بين حقائق الكون الأساسية . . وكلام الله سبحانه وتعالى . .

الأرض . . مددناها

نأتى بعد ذلك إلى حقائق القرآن . . واساءة تفسيرها بحيث تتصادم مع حقيقة علمية . . بعض العلماء يقولون أن الله سبحانه وتعالى قد قال فى كتابه العزيز . .

« والأرض مددناها » . .

ومعنى المد . . البسط . . أى بسطناها . . ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا . . فلا تناقض بين القرآن الكريم . . وبين الظاهر الموجود . .

ولكن عندما اكتشفت كروية الأرض . . ثار علماء الدين واتهموا كل من يقول أن الأرض كروية بالكفر . . لأنه يخالف فى رأيهم القرآن الكريم . .

نقول لهم لقد أسأتم تفسير حقيقة قرآنية . . الله سبحانه وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية . . بل أعطانا أكثر من دليل على ذلك فى القرآن . . بل أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الأرض على هيئة كرة . . ولنناقش هذا كله . .

لقد قال الله سبحانه وتعالى :

« والأرض مددناها »

. . أى بسطناها . . ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أى أرض مبسوطة . . ومعنى ذلك أنك اينما تنظر إلى الأرض تراها مبسوطة . . إذا كنت فى خط الاستواء . . فالأرض أمامك مبسوطة . . فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبى فالأرض أمامك مبسوطة . . وإذا كنت فى القطب الشمالى فالأرض أمامك مبسوطة . . وإذا كنت فى أوربا . . أو أمريكا . . أو آسيا . . أو أى قارة من قارات الأرض . . فالأرض أمامك مبسوطة . . الأرض مبسوطة أمام البشر جميعا فى كل موقع موجودين فيه . . وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كروية . . فلو أن الأرض مسطحة . . أو مربعة أو مثلثة . . أو مسدسة . . أو فى أى شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة . . وحيث أنه لا يمكن أن تصل فى الأرض إلى حافة فالشكل الوحيد الذى تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة هو أن تكون الأرض كروية . .

وهكذا أبلغنا القرآن فى كلمتين اثنتين **« والأرض مددناها »** . . أترى الإعجاز فى القرآن الكريم لقد أثبت الله كروية الأرض . . وفى نفس الوقت اختار العبارة التى لا تتصادم مع مفهوم العقل البشرى فى وقت نزول القرآن . . ولكن فى كلمتين اثنتين . . أعطانا الله السر فى الأرض . . إعجاز لا يمكن أن يكون قائله بشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أيضا فى أربع كلمات . . أنه خلق الأرض على هيئة كرة . . أى أنها كانت كذلك ساعة الخلق . .

الليل يسبق .. أم النهار

حينما نأتى إلى الآية الكريمة ..

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

يقول الله تعالى فى سورة يس :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ ﴾

(سورة يس)

والحديث هنا عن قوانين الكون .. الشمس لا تدرك القمر .. لأنهما كما قال العلماء يتحركان فى خطين متوازيين لا يلتقيان أبدا .. هذه حقيقة علمية ظهرت فى السنوات الأخيرة .. وذكرها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. ولكن ما معنى « **ولا الليل سابق النهار** » .. المعنى هنا نفى لشيء موجود غير صحيح .. يريد الله سبحانه وتعالى أن يصححه .. يريد أن يزيل هذا الواقع الخاطىء .. العرب كانوا يقولون أن الليل يسبق النهار .. واليوم عند العرب يبدأ بغروب الشمس .. بمعنى أن رمضان يثبت بعد غروب شمس آخر يوم شعبان .. والعيد يثبت بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان .. إذا كان العرب يقولون ان الليل يسبق النهار .. ومعنى ذلك أن النهار لا يسبق الليل ..

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. الليل يسبق النهار .. والنهار لا يسبق الليل .. النهار لا يسبق الليل .. تركها الله .. ولم يتعرض لها .. لأنها حقيقة .. ولكنه جاء إلى كلمة أن الليل يسبق النهار .. ورد عليهم بقوله تعالى :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

إذن وجدت عندنا حقيقتان .. لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. لا النهار يسبق الليل حقيقة كانت موجودة .. ولم يتعرض لها القرآن لأنها حقيقة .. لا الليل يسبق النهار خطأ كان موجودا فصححه الله سبحانه وتعالى بقوله :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

إذن لا النهار يسبق الليل .. ولا الليل يسبق النهار .. معنى ذلك أن الليل

والنهار يوجدان معا فى وقت واحد على الأرض .. لأن النهار لا يسبق الليل .. والليل لا يسبق النهار .. وهذا لا يتأتى إلا إذا كانت الأرض كروية ..

لكن ليس هذا هو القصد النهائى من الآية .. الله سبحانه وتعالى أراد أن يصحح هذه الحقيقة .. ويقرر أن الليل والنهار موجودان معا على الأرض ليبلغنا عن حقيقة خلق الأرض .. لو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض مسطحة .. فإما أن تكون الشمس ساعة الخلق فى مواجهة السطح .. وحينئذ يكون النهار قد وجد أولا .. ثم يأتى بعد ذلك الليل .. وإما أن تكون الشمس غير مواجهة للسطح ساعة الخلق .. ومن هنا يكون الليل قد أتى أولا .. ثم بعد ذلك يأتى النهار .. ولكن كون الله سبحانه وتعالى يقول لنا أن النهار والليل خلقا معا .. لم يسبق أحدهما الآخر دليل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض كروية .. لأنه حدد الشكل الوحيد الذى يوجد فيه الليل .. والنهار .. على سطح الأرض معا ساعة الخلق .. وهكذا نرى القرآن قد مس حقيقة هامة فى آية أو جزء من الآية يريد الله أن يخبرنا فيه بأنه خلق الأرض على هيئة كرة .. وأنه أوجد الليل والنهار معا عليها .. فيقول سبحانه :

« **ولا الليل سابق النهار** » ..

وعندما يتقدم الذهن البشرى ويبحث .. ويعرف معنى الآية نجد أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بكل هذه الحقائق عن خلق الأرض على هيئة كرة .. وخلق الليل والنهار معا .. فى بضع كلمات ..

دوران الأرض .. والجبال

ننتقل بعد ذلك إلى قضية دوران الأرض حول نفسها .. لترى أن الله سبحانه وتعالى يمسها فى القرآن كحقيقة كونية .. فهو يتحدث حين يقول سبحانه فى سورة النمل :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النمل)

الجبال رواسى للأرض مفروض أن تثبتها وتمنعها من الحركة . . ومن أن يحدث بها أى خلخلة أو اهتزاز . . هذه الجبال هى الرواسى التى تجعل الأرض لا تميد بالإنسان . . هى مركز الثبات التى إذا نظرت إليها . . وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة فى مكانها لا تتحرك خطوة واحدة . . ثابتة جامدة . . يأتى الله سبحانه وتعالى ويقول :

« **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** »

لماذا قال الله سبحانه وتعالى تحسبها .؟ قالها رحمة بالعقل البشرى . . فالإنسان يظن أن الجبال جامدة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التى نراها أمامنا ونحسبها جامدة . . تتحرك من مكان إلى آخر . . ولكنها « **تمر مر السحاب** » . . لماذا . .؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة . . لا يتحرك بنفسه . . إنما تحركه الرياح . . فالسحاب بدون الريح يبقى فى مكانه . . ولكن الرياح هى التى تدفعه من مكان إلى آخر . . ومن هنا فإن استخدام الله سبحانه وتعالى لكلمة « **مر السحاب** » . . يريد أن ينبئنا أن الجبال التى نحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها . . بل هى تابعة لحركة أخرى تدفعها . . تماما كما تدفع الرياح السحاب . . وإذا كانت الجبال وهى أوتاد الأرض ولا تتحرك ذاتية من نفسها . . فما الذى يدفعها . . محرك آخر . . وما هو المحرك الآخر . . انه الأرض . . وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض . . فلابد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور . . وإلا فكيف تقوم بتحريك الجبال وهى ثابتة . . ان الجبال فى حركتها . . تابعة لشىء آخر يتحرك . . تماما كالسحاب الذى يتبع فى حركته الريح والجبال ثابتة فوق الأرض فلا يوجد محرك آخر لها إلا الأرض . . وهكذا مس الله سبحانه وتعالى دوران الأرض بشكل بديع يبين لنا أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها . . وأن الجبال التى هى أوتاد الأرض تتحرك تابعة للأرض فى حركتها . . وأننا نحسب هذه الجبال جامدة . . ولكن قول الله سبحانه وتعالى « **تحسبها جامدة** » محتاج إلى وقفة . . ذلك أنه يقدم لنا حقيقة علمية أخرى . .

انك حين تكون فوق جسم متحركة حركة رتيبة لا اهتزاز فيها فإنك لا تحس بهذه الحركة إلا إذا قست هذا الجسم إلى جسم ثابت . . الطائرة حين تطير بنا . . إذا نظرت من النافذة . . فانى أحس بحركة الطائرة وطيرانها . . ولكن إذا

أقفلنا النوافذ . . وكان الجو مستقرا ليس فيه أى اضطراب بحيث لم يصاحب هذا الطيران أى اهتزاز فإننى لا أشعر اطلاقا بحركة الطائرة . . لماذا ؟ لأن كل شيء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لى فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولى ثابت . . ولا أحس فى هذا بأية حركة . . وكذلك بالنسبة للقطار والسيارة . . أنت حين تغلق النوافذ . . وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها . . فإنك لا تحس بالحركة . . ولكن إذا فتحت النافذة وقست الحركة إلى شيء ثابت فإنك تحس بالحركة . .

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحسكم . . لأن وضعها بالنسبة للأرض ثابت . . ووضعها بالنسبة لكم ثابت . . ووضعها بالنسبة لكل شيء حولها ثابت . . ومن هنا فإنك تحسبها جامدة . . ولا تفطن إلى حركتها أبدا . . لأنه ليس هناك شيء أمامك . . تقيس الحركة به . . ولكنى أقول لك أن هذه الجبال تتحرك وهى فى حركتها ليست لها حركة ذاتية أى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض . . بل تتبع الأرض فى دورانها . . ثم تتعجب أنت لذلك فيقول لك الله سبحانه وتعالى لا تتعجب إنه « **صنع الله الذى أتقن كل شيء** » يكون هناك يقين . .

بعض الناس يقولون أن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة . . ولكننا نقول لهم أنه فى يوم القيامة لا يكون هناك حسبان ولكن يكون يقينا . .

« **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » . .

ويقول الله سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة :

« **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** » . .

فكيف ينسفها الله ثم نحسبها جامدة ويقول الله سبحانه وتعالى :

« **يوم تبدل الأرض غير الأرض . . والسماوات** »

فى يوم القيامة . . ينسف الله الجبال ويبددها . . وكل شيء أمامك يكون يقينا فأنت ترى الجنة . . وترى النار . . وترى الله رؤية اليقين . . فالحسبان فى الدنيا واليقين فى الآخرة . .

الحديث عن الجنين . . لماذا ؟!

على أن القرآن مس أشياء كثيرة . . لو كان هذا كلاما من عند غير الله ما غامر

من يقوله فى أن يمس هذه الأشياء .. الحديث عن الأجنة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

(سورة المؤمنين)

ما الذى يجعل محمدا عليه السلام يقتحم قضية غيبية .. ويقولها فى القران الكريم وهى قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه .. فالقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته ولا تغيير فيه ولا تبديل إلى يوم القيامة .. ماذا يمكن أن يحدث مع تقدم العلم .. لو ظهر أن هذا الكلام غير صحيح ؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر ؟ ولماذا يخاطر محمد عليه السلام فى شىء غيبى كهذا ؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه .. أو أن يتحداه فيه .. ولكن لأن الخالق هو الله .. والقائل هو الله .. جاء الحديث عن الأجنة فى القرآن قبل أن يصل إليه العلم .. ثم اكتشف العلم صحة كل كلمة فى القرآن .. إنه تحد .. وتحد من الله سبحانه وتعالى ..

وفى أنفسكم

شىء آخر مسه القرآن مسا دقيقا وهو الجسم البشرى وعلم الأعضاء .. يأتى الله سبحانه وتعالى ويذكر الأذن دائما قبل العين .. ويقول الله « **السمع والأبصار** » .. ولا يقول البصر والسمع ..

يستوقفنا هذا لأن الإنسان حين يفقد بصره .. يفقد كل شىء .. يعيش فى ظلام دائم .. لا يرى شيئا على وجه الاطلاق .. يصيطدم بكل شىء .. ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى وحينئذ تكون المصيبة أهون .. ولكن الله سبحانه

وتعالى حين يذكر السمع يقدمه دائما على البصر . .

إن هذا اعجاز فى القرآن . . لقد فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر لأنه أول ما يؤدى وظيفته فى الدنيا . . ولأنه أداة الاستدعاء فى الآخرة . . لأن الأذن لا تنام أبدا . .

إن السمع أول عضو يؤدى وظيفته فى الدنيا فالطفل ساعة الولادة يسمع ولكن العين لا تؤدى مهمتها لحظة مجىء الطفل فى الدنيا . . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا أن السمع هو الذى يؤدى مهمته أولا . . فإذا جئت بجوار طفل ولد منذ ساعات . . وأحدثت صوتا مزعجا فإنه ينزعج . . ويبكى ولكنك إذا قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك ولا يحس بالخطر . . هذه واحدة . . وإذا نام الإنسان فإن كل شىء يسكن فيه إلا سمعه . . انك إذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينه فإنه لا يحس . . ولكنك إذا أحدثت ضجيجا بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعا . . هذه الثانية . . أما الثالثة فهى أن الأذن هى الصلة بين الإنسان والدنيا . . الله **سبحانه** وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال :

« **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا** » . .

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أى ازعاج . . ذلك أن ضجيج الحركة فى النهار يمنع الإنسان من النوم العميق . . وسكونها بالليل يجعله ينام نوما عميقا . . إذن الأذن هى التى تؤدى وظيفتها أولا . . وهى لا تنام ولا تغفل أبدا . . وهى الصلة بين الإنسان والدنيا . . وأداة الاستدعاء فى الآخرة . . ولذلك فضلها الله سبحانه وتعالى :

على أن هناك شيئا آخر نلاحظه هو أن الله سبحانه وتعالى يأتى بكلمة السمع مفردة دائما . . وكلمة الابصار مجموعة . . يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة فصلت :

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ ﴾

(سورة فصلت)

لماذا تأتى كلمة السمع مفردة . . وكلمة البصر مجموعة . . مع أنه كان يجب أن يقول الله سبحانه وتعالى أسماعكم وأبصاركم . . وكان من المفروض أو

المنطقى أن يكون هناك سمع وبصر . . أو أسماع وأبصار . . ولكن الله سبحانه وتعالى بهذا التعبير أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم . . فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بارادته . . فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر . . وأستطيع أن أغمض عينى عما لا أريد أن أراه . . أو أدير وجهى أو أدير عينى بعيدا عن الشىء الذى أريد أن أتجاهله . . ولكن الأذن ليس لها اختيار فى أن تسمع أو لا تسمع . . فأنت فى حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعا إلى أذنك . . سواء أردت أو لم ترد . . أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته . . ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه . . ولا تسمع ما لا تريده . . قد تتجاهله . . وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه . . ولكنه يصل إلى أذنيك سواء أردت أو لم ترد . . إذن فالابصار تتعدد . . أنا أرى هذا . . وأنت ترى هذا . . وثالث يرى هذا . . إلى آخر تعدد الابصار . . وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئا . . ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعا مادمنا جالسين فى مكان واحد . . فكلنا نسمع نفس الشىء . . ومن هنا اختلف البصر . . ولكن توحد السمع . . كل واحد له بصر . . ينظر به إلى المكان الذى يريده . . ولكننا كلنا نتوحد فى السمع فيما نريد . . وما لا نريد أن نسمع . . ومن هنا جاءت كلمة الابصار . . بينما توحدت كلمة السمع . . ولم تأت كلمة الاسماع . . على أن الأذن مفضلة عن العين لأنها لا تنام . . والشىء الذى لا ينام أرقى فى الخلق من الشىء الذى ينام . . فالأذن لا تنام أبدا منذ ساعة الخلق انها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة . . بينما باقى أعضاء الجسم . . بعضها ينتظر اياما . . وبعضها ينتظر سنوات . .

والأذن لا تنام . . فأنت حين تكون نائما تنام كل أعضاء جسمك . . ولكن الأذن تبقى متيقظة . فإذا أحدث أحد صوتا بجانبك . . وأنت نائم . . قمت من النوم على الفور . . ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل . . فإن ضجيج النهار وأصوات الناس وكل ما يحدث فى هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم . . لأن آلة الاستدعاء وهى الأذن معطلة . . كما أن الأذن هى آلة الاستدعاء يوم القيامة حين ينفخ فى الصور . .

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى . . تنعكس الأشعة على الأشياء . . ثم تدخل إلى العين فترى . . فإذا كانت الدنيا ظلاما فإن العين لا ترى . . ولكن الأذن

تؤدى مهمتها فى الليل والنهار . . فى الضوء والظلام . . والإنسان متيقظ . . والإنسان نائم . . فهى لا تنام أبدا . . ولا تتوقف أبدا . . أعرفت الآن لماذا فضل الله سبحانه وتعالى السمع على البصر . . وقدمه فى القرآن الكريم ؟!

الاحساس . . والجلد

شىء آخر يستوقفنا هو ما كشف عنه الله سبحانه وتعالى عن الحس . . القرآن يلمس هنا حقيقة كونية هامة . . لأنه يأتى ويعلمنى كيف أعرف منافذ الحس . . أو مواضع الحس . . وهو يأتى ليمس هذا على أنه حقيقة كونية . . ولكنه لا يشرحه ككتاب طبى . . بل يقول الحقيقة . . فعندما يتحدث عن الكفار الذين يعذبون فى النار . . يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الله قد حدد لى حكمة تبديل الجلد أو تغييره بأنه ليذيقهم العذاب . . إذن فالاذاقة حسب القرآن محلها الجلد . .

نأتى الآن إلى الحقيقة العلمية التى تؤكد لنا أن كل أعصاب الاحساس موجودة . . تحت الجلد مباشرة . . وإن هذه الأعصاب التى تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ . . مكانها تحت الجلد مباشرة . . إذن قول الله سبحانه وتعالى :

« **بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** » . .

اعلان لحقيقة كونية يمسها الله فى القرآن . . وهى ان الاحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة . . وإن الله كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التى احترقت وماتت فيها أعصاب الاحساس بجلود سليمة لم تحترق ليذوقوا العذاب مرة أخرى . . فحينما يأتى الطب ليقول لنا أن أعصاب الجسم تحت الجلد مباشرة . . نقول إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة فى القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا . .

على أن نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم لا تقتصر على ما ذكرت لكن هذه بعض أمثلة بسيطة . . ولقد تحدثت فى الفصول الماضية إن الله سبحانه وتعالى قد

قال سيروا فى الأرض . . ولم يقل سيروا على الأرض . . وبينت الاعجاز فى ذلك بأننا نسير فعلا فى الأرض . . بين الغلاف الجوى والسطح . . كما بينت معنى الآية الكريمة « رب المشارق والمغارب » . . وهذا كله يعتبر اعجازا هائلا للقرآن الكريم . . وهناك نواحى اعجاز أخرى سنبين بعضها فيما بعد . .

طفل الأنابيب !

إننا قبل أن ننتهى من هذا النقاش . . يجب أن نتحدث عن حقيقة علمية . . وهى ليست حقيقة علمية . . يأتى بعضها الناس ليقولوا إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين . . هل هو ذكر أم أنثى . . ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلا صناعيا . . وإن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة . . وهى :

« **ويعلم ما فى الأرحام** » . .

ونحن نقول لمن يدعى هذا الكلام . . من الذى قال لك أن كلمة « ما » معناها ذكر أم أنثى . إن كلمة « ما » معناها شقى أم سعيد . . طويل أم قصير . . أبيض أم أسود . . عمره . . رزقه . . أجله . . اسمه . . كل شئ عن المخلوق الذى سيأتى إلى الدنيا . . بل ان الله سبحانه وتعالى أخبر « زكريا » بابنه قبل أن يولد . . وأخبره باسم هذا الابن . . وهو اسم لم يكن البشر يتسمون به . . وقال له عن مستقبله عندما يكبر . . إنه سيكون سيدا . . وحصورا ونبيا من الصالحين . . كل ذلك قبل أن يوجد هذا الطفل فى رحم « زوجة زكريا » . . بل قبل أن يتم الخلق تماما . . فهذا البلاغ كان فى المحراب . . وزكريا يصلى يطلب ولدا . .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

(سورة آل عمران)

إذن البشارة جاءت هنا وكل شيء عن المولود الجديد قبل أن يتم خلقه فى الرحم .. بل وأكثر من ذلك كان زكريا نفسه غير مصدق أن ذلك ممكن أن يحدث لأنه كبير فى السن وامرأته عاقر .. فى هذه اللحظة التى يستبعد فيها زكريا أن يرزق بطفل .. أخبره الله أنه سيرزق بولد .. ويكون اسمه « يحيى » وسيكون نبيا وحصورا ومن الصالحين .. وهذا هو بعض تفسير كلمة « ما » فكيف يفسر البعض كلمة « ما » أنها ذكر أو أنثى .. مع أن كلمة « ما » تتناول كل شيء عن المولود قبل أن يولد .. وفى أى أرض يموت .. ومستقبله .. ومن سيتزوج .. ورزقه .. وهل هو سعيد أم شقى .. طويل أم قصير .. وكل ما سيحدث له .. إن كلمة « ما » تتناول كل حرف فى حياة الإنسان ، ما سيشهده .. وكيف سيعيش ، وإلى أى البلاد سيهاجر .. إذن فعلم الله سبحانه وتعالى فى كلمة « ما » علم غير محدود .. فكيف تأتى أنت وتحدده بذكر أم أنثى .. مع أن الله سبحانه وتعالى لم يحدده .. بل قال « ما » فى الأرحام ؟

على أن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية .. ذلك أن الزوجة إما أن تلد ذكرا أو أنثى .. وفى بعض الأحيان تقول أنا سأرزق بولد .. وترزق بولد .. وفى بعض الأحيان تقول أنا سأرزق ببنت وترزق ببنت .. وليس معنى ذلك أنك تعلم الغيب .. ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة فى كل افتراض .. هناك ٥٠٪ ولد .. و٥٠٪ بنت .. وأنت ان جاء تخمينك صحيحا فلانك معك ٥٠٪ منه .. ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر وأنثى .. لو كانوا ٢٠ جنسا مثلا لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شيء من الدقة لأن التمييز بين عشرين جنسا والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلا إلى طريقة علمية دقيقة .. ولكن التمييز بين ذكر أم أنثى يمارسه بعض الناس الذين لم يقرأوا فى حياتهم كتابا .. يقولون لامرأة حامل يظهر عليك انك سترزقين بولد .. ويأتى المولود ولدا فعلا .. فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما فى الأرحام .. إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيرا

ولكن بعض الناس يأتون ويهللون ويقولون أن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى وهذا غير صحيح على الاطلاق . . إن ما« فى الأرحام » يشمل أكثر كثيرا من علم البشر من الآن وحتى يوم الدين .

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الأخرى وهى الطفل الصناعى . . وهذه نقطة يثور حولها الجدل فى هذه الأيام حول طفل الأنابيب . . وما إلى ذلك . . وأنت إذا أردت أن تصنع بشرا . . فالمفروض أن تأتى بالمادة الحية تصنعها أولا ولكنك حينما تأخذ ما خلق الله وتيسر عملية الخلق بما كشف الله لك من علم لا يكون هذا أبدا فيه صناعة أو طفل صناعى . . أنت أخذت ما خلقه الله من الرجل وأوجدت له الطريقة ليتم ما أراده الله فيما خلقه الله للأنثى . . إذن أنت لم تفعل شيئا سوى أن كان هناك سبب يمنع الحمل . . واستطعت أن تتغلب عليه بطريقة ما . . ولكن المادة الحية والرحم الذى نما فيه الطفل هما من خلق الله سبحانه وتعالى . . فأين ما خلقت أنت من طفل صناعى . . أو طفل الأنابيب ؟! إنك لم تخلق شيئا . . وإذا كان الله قد يسر لك سبيلا لتعالج عقما باستخدام ما خلقه الله . . لاستمرار حياة البشر فى الأرض . . فأنت لم تخلق شيئا . . ولو أردت فعلا أن ترينا إنك تستطيع أن تخلق طفلا صناعيا . . فأبدا أولا بخلق المادة الحية والعلم كله عاجز عن أن يخلق خلية حية . . ولكن كل هذا محاولة للاضلال . .

على أن معجزة القرآن لم تأت لتبين أو تكشف عن بعض أسرار الكون . . وتلمس الحقائق الكونية الكبرى . . وإنما جاءت لتتحدى . . القرآن مادام معجزة فلابد أن فيه تحديا . . ولقد تحدى القرآن العرب بالبلاغة ولكن الإسلام هو دين البشرية كلها . . ولذلك كان للقرآن أن يتحدى الذين عاشوا وقت نزوله من غير العرب . . ثم يحمل تحديا لكل جيل بعد ذلك وإلا فالمعجزة لا تكون قائمة . .

ولقد استطاع القرآن أن يمزق حجب الغيب كلها . . مزق حجاب الماضى . . وحجاب الحاضر . . ومزق حجاب المستقبل . . ومزق حجاب النفس البشرية . . ومزق حجاب كل الأشياء التى لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن . . ومازال القرآن يتحدى . . ولا أحد يستطيع أن يواجه هذا التحدى . . وهذا التحدى هو ما سنبينه فى الفصل القادم . .

الفصل السابع

القرآن من وحي الغيب

القرآن مزق حواجز الغيب

حينما جاء القرآن تحدى فى أشياء كثيرة .. تحدثت عنها .. ولكنه فى تحديه مزق حواجز الغيب .. مزق حواجز الزمان والمكان .. فحواجز الغيب ثلاثة .. أولها حاجز المكان .. أى أن أشياء تحدث فى نفس اللحظة .. ولكن لا أعرف عنها شيئا .. لأنها تحدث فى مكان .. وأنا موجود فى مكان آخر ..

ثم هناك حاجز الزمن الماضى .. وهو شىء حجبه عنى زمن مضى .. فأنا لم أشهده .. وحاجز المستقبل وهو ما سيحدث غدا .. لأن حاجز الزمان المستقبل قد حجب عنى فلم أشهده .. إذن فحواجز الغيب ثلاثة .. حاجز المكان .. وحاجز الزمن الماضى .. وحاجز الزمن المستقبل .. على أن هناك أيضا حاجزا آخر .. هو حاجز النفس البشرية .. ما يخفيه الإنسان داخل نفسه ..

إذا قرأنا القرآن وجدنا أنه يمزق حاجز الزمن الماضى .. فيخبرنا بما حدث للأمم السابقة .. ويروى لنا قصص الرسل السابقين .. ويحكى لنا أشياء لم يكن أحد يعرفها .. وعلى لسان من .. على لسان نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب .. ويحكى أسرار الماضى .. ويتحدى الذين يكذبون .. مزق الله حجاب وحاجز الزمن الماضى .. ويكفى أن تقرأ فى القرآن .. « وما كنت وما كنت وما كنت » .. لتعرف كم أخبر الله رسوله بأنباء من غيب الماضى ..

« **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى** » ..

« **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** » ..

أى إنك لم تكن هناك يا محمد .. ولكن الله هو الذى أخبرك ومزق لك حجاب الزمن الماضى ..

« **وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا** » ..

« **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك** » ..

وهكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضى فى أكثر من مناسبة ليخبر محمدا عليه السلام بالأخبار الصحيحة عمن سبقوه من الرسل والأنبياء .. ويصحح ما حرف من الكتب السماوية التى أنزلها الله وحرفها الرهبان والأحبار .

بل ان الاعجاز هنا جاء فى تصحيح ما حدث من تحريف الكتب السماوية التى سبقت القرآن .. وكان محمد صلى الله عليه وسلم يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصارى .. ويقول لهم هذا من عند الله .. فى التوراه أو الانجيل ..

وهذا حرفتموه فى التوراة أو الانجيل . . ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدى أو يردوا عليه . . ذلك أن التحدى للقرآن فى تمزيق حجاب الزمن الماضى . . وصل إلى أدق أسرار الرسالات السماوية الماضية . . فصححها لهم . . وبين ما حرفوه منها وما أخفوه . . وتحداهم أن يكذبوا ما جاء فى القرآن فلم يستطيعوا . . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة مريم :

« ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » . .

ثم جاء الأمر الثانى . . فمزق الله حجابَ المكان لمحمد عليه الصلاة والسلام . . وجاء فى أمر من أدق الأمور وهو حديث النفس . .

وهنا وقبل أن نبدأ . . أحب أن نضع فى أذهاننا جيدا . . أن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته . . وانه يبقى بلا تعديل ولا تغيير لا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يحرفه . . ومن هنا فإن هذا الكلام حجة على محمد صلى الله عليه وسلم مأخوذ عليه . . فإذا أخبر القرآن بشىء . . واتضح انه غير صحيح . . كان ذلك هدما للدين كله . .

يأتى القرآن بعد أن بينت خطورة ما يقول . .

« ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله » . .

ما معنى هذا الكلام . . معناه امعان فى التحدى . . فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضى . . وأخبرتكم بأنباء الأولين . . ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان . . وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبة لا ترونها بل يقول : سأهتك حاجز النفس . . وأخبركم بما فى أنفسكم . . بما فى داخل صدوركم . . بما لم تهمس به شفاهكم . . وكان يكفى لكى يكذبوا محمدا أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا . . لو لم يقولوها بالفعل داخل أنفسهم لكان ذلك أكبر دليل لكى يكذبوا محمدا ويعلنوا أنه يقول كلاما غير صحيح . . إذن فالقرآن فى هتكه لحجاب المكان . . دخل إلى داخل النفس البشرية . . وإلى داخل نفوس من . . إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام . . وقال فى كلام متعبد بتلاوته لن يتغير . . ولا يتبدل . . قال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(سورة المجادلة)

قال ما يدور فى أنفس غير المؤمنين . . فهل هناك أكثر من هذا تحديا لحجاب المكان .'. إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التى وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان . .

يحلفون . . وهم كاذبون

بل ان التحدى ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على اخفائه . . فالإنسان حين يحرص على اخفاء شيء . . ويكون غير مؤمن . . يأتى إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح . . وهو غير صحيح فى نفسه فقط . . ولكن حرصه على أن يخفيه على الناس يجعله يؤكد إنه صحيح بالحلف . .

ويأتى الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس . . ويظهر ما فيها امعانا فى التحدى ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة التوبة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول سبحانه وتعالى :
« ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » . .
ويقول الله سبحانه وتعالى امعانا فى كشفه ما فى نفوس أولئك الذين يكذبون بهذا الدين . .
« ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم . . ولتعرفنهم فى لحن القول » . .
وهكذا يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول للنبى عن المنافقين . . إنك تعرفهم فى لحن القول . أى أنهم يلحنون ويلوون ألسنتهم بالقرآن وهذا أمر اختيارى . . أى انهم يستطيعون أن يفعلوه ويستطيعون أن يمتنعوا عن فعله . . والله عندما ينزل هذه الآية يكون الفعل لم يتم . . أى أنهم يفاجأون بالآية قبل أن يقوموا بما ينوون القيام به . . ومن هنا يكون لهم حرية الاختيار . .
ومع وجود حرية الاختيار . . فإنهم يأتون ليقوموا بما قاله الله فى القرآن الكريم دون أن يستطيعوا أن يتراجعوا عن ذلك . . بل أن الله سبحانه وتعالى يدخل إلى نفوسهم ليخرج من الأسرار ما يخفونه داخل صدورهم ولا يقولونه لأحد . . فالسر نوعان :
- سر بينى وبينك أى لا يعلمه إلا أنا وأنت كصديقين أو حليفين .
- وسر آخر أخفيه فى صدرى ولا يعلمه أحد فى هذه الدنيا . . ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى السر الذى أخفيه فى صدرى ولا يعلمه أحد فيفضحه أو يعلنه وأنا فى هذه الحالة أملك كل وسائل التكذيب . . لأنه لا أحد يعرف هذا السر غيرى . . ومع ذلك أقف مبهوتا من أن القرآن الكريم قد أظهر ما فى نفسى . . وما أخفيته . . فلا أستطيع أن أكذب . . مع انى جئت لأقول الكذب . . أى أن المنافقين الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى جاءوا ليكذبوا . . ولكن عندما فضح الله سرهم . . بهتوا فلم تستطع ألسنتهم أن تنطق بالكذب . . بل وأكثر من ذلك قال الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولون كذا . . وسيفعلون كذا . . والسين هنا تدل على أن الفعل لم يتم . . ومع ذلك لم يستطع المنافقون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن الله سبحانه وتعالى أنهم سيقولونه . . مع أن فى امتناعهم عن القول هدما لقضية الدين والإيمان . .
إذن فالقرآن هنا جاء لأناس غير مؤمنين . . وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم فأخرج ما فى صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا . . وفضح كذبهم . . ونشر

على الدنيا كلها ما فى صدورهم من كذب ورياء ونفاق . . أى أنه اهانهم أمام المجتمع كله . . ولو كان هذا غير صحيح لقال هؤلاء القوم إننا لم نكذب . . إننا لصادقون . . والكلام الذى يدعى محمد أنه يأتى من عند الله كلام غير صحيح . . ولكن هؤلاء بهتوا من أن القرآن مزق حجاب نفوسهم فلم يستطيعوا ردا . . وبهتوا لأن الله أخرج ما فى صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا . . فلم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم تواروا بعد أن افتضحت حقيقتهم . . ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية . . وهى من أدق أسرار الدنيا التى لم يستطع علم أن يصل إليها حتى الآن . . فإذا بالقرآن يأتى متحديا بكلام متعبد به إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف ما فى داخل النفس . . ويعرى ما تكتمه عن الناس جميعا . . وما هى حريصة على كتمانه . . حتى انها تحلف باسم الله كذبا ليصدقها الناس . . يأتى القرآن فيمزق هذا كله . . أتريد اعجازا أكثر من ذلك . .

ومزق حجاب المستقبل

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل . . كان لابد أن يكون الحديث عن المستقبل على عدة مراحل . . المرحلة المعاصرة لكى يعرف أصحاب الرسالة والمؤمنون وغير المؤمنين إنه الحق . . ومرحلة المستقبل البعيد لكى يعرف كل عصر من العصور التى ستأتى بعد نزول القرآن . . إن هذا هو كتاب الله الحق . . ومن هنا كان التحدى بالنسبة للمعاصرين لأحداث قريبة . . وبالنسبة للعالم عن حقائق الكون كله . . هنا أحب أن أنبه إلى شىء هام جدا هو استخدام حرف السين فى القرآن : فحرف السين كما نعرف فى اللغة العربية لا يستخدم إلا بالنسبة لاحداث مستقبله . . والقرآن محفوظ ومتعبد به وبتلاوته . . سيظل محفوظا حتى يوم الساعة . . ومعنى ذلك أنه لا يمكن تبديله أو تغييره أو انكاره من أحد من المتعبدين به . . بل إنه سيظل يتلى هكذا كما أنزل . . إذن فأنباء القرآن باحداث مستقبلة يسجل هذه الأحداث على قضية الإيمان نفسها ويطعن الدين فى صميمه . . خصوصا إذا تبين أن ما تنبأ به القرآن غير صحيح . . ومن هنا فلابد أن يكون القرآن متأكدا من أن هذا سيحدث فى المستقبل . . من من البشر يستطيع أن يتأكد ماذا سيحدث له بعد ساعة

واحدة . . فما بالك بعد أيام وسنوات . . الجواب لا أحد . . ذلك أن قدرة البشر فى صنع الأحداث محدودة . . فقد حجب عنهم الزمن . . وحجب عنهم المكان . . فلو قلت مثلا انى سأبنى عمارة فى هذه البقعة بعد عام . . أنا لا أضمن انى سأعيش حتى الساعة القادمة . . وبذلك لا أستطيع أن أحكم إذا كنت سأكون موجودا هناك أم لا . . هذه واحدة . . ثانيا قد تأتى الحكومة مثلا وتبنى مستشفى فى هذا المكان . . أو قد يقام فى هذا المكان سوق أو شارع . . إذن فأنا لا أستطيع أن أجزم فى شىء مادى سيحدث بعد فترة زمنية محدودة . . ولكن الذى يستطيع أن يقول هذا يقينا هو الذى يملك القدرة . . ومن هنا فإنه يستطيع أن يقول يقينا أن هذا سيحدث بعد فترة من الزمن . . والذى يملك ذلك هو الله سبحانه وتعالى . . فإذا كان الحديث عما سيحدث بعد آلاف السنين . . فإن ذلك فوق طاقة البشر جميعا . . ولقد أنبأ القرآن بما سيحدث بعد أعوام قليلة . . وبما سيحدث بعد آلاف السنين . . فالذى قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقينا وهو الله سبحانه وتعالى . . انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » . .

لقد نزلت سورة القمر هذه فى مكة . . والمسلمون قلة . . وأذلة . . حتى أن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا الذى سيهزم ونحن لا نستطيع أن نحمى أنفسنا . . وهكذا يتنبأ القرآن بأن الإسلام سينتصر . . فى مكة . . وإن هؤلاء الجمع الذين تجمعوا لمحاربة الإسلام فى مكة سيهزمون ويولون الأدبار . . ويتنبأ بها متى . . والمسلمون قلة . . وأذلة . . لا يستطيعون حماية أنفسهم . . ويطلقها قضية . . هو على يقين من أن الله الذى قالها سيحققها . . وبعد ذلك نجد عجبا . . الوليد بن المغيرة العدو الأول للإسلام . . والمشهور بكبريائه ومكابرته وعناده . . يأتى القرآن ويقول : هذا الإنسان المكابر العنيد . .

« سنسمه على الخرطوم » .

أى إنه سيقتل بضربة على أنفه . . ويحدد موقع الضربة . . وبعد ذلك يأتى فى بدر فتراه قد وسم على خرطومه . . أى ضرب على أنفه . . من الذى يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها . . من الذى يستطيع أن يجزم . . ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة . .

القرآن مزق حواجز الغيب

التحدى . . لأعداء الله

نأتى بعد ذلك إلى آية أخرى . . الرسول عليه الصلاة والسلام يأتى فيقرأ . .

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المسد)

هذا قرآن . . وفى من . . فى عم الرسول . . وفى من . . فى عدو الإسلام . . ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية ؟ ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن ؟ ضد هذا الدين . . قالت له الآية يا أبا لهب أنت ستموت كافرا . . ستموت مشركا . . وستعذب فى النار . . وكان يكفى أن يذهب أبو لهب إلى أى جماعة من المسلمين . . ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . . يقولها نفاقا . . ويقولها رياء . . يقولها ليهدم بها الإسلام . . لا ليدخل فى الإسلام . . يقولها ثم يقف وسط القوم يقول : إن محمدا قد أنبأكم اننى سأموت كافرا . . وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله . . وأنا أعلن إسلامى لأثبت لكم أن محمدا كاذب . . لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا . . ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبى لهب على الوصول إليه . . بل بقى كافرا مشركا . . مات وهو كافر . . ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافرا . . أمرا ممكنا . . لأن كثيرا من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب . . وغيرهم . . كانوا مشركين وأسلموا . . فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا . . وسيموت وهو كافر . . المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو . . وتحداه فى أمر اختيارى . . كان من الممكن أن يقوله . . ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث . . لماذا . . لأن الذى قال هذا القرآن . . يعلم إنه لن يأتى إلى عقل أبى لهب تفكير يكذب به القرآن . . هل هناك اعجاز أكثر من هذا ؟

وتحد .. لغير العرب

انتقل بعد ذلك إلى النقطة الثانية .. وهى ماذا حمل القرآن لغير العرب فى عصره .. ولغير العرب والدنيا كلها بعد عصره ..؟ أى ماذا حمل القرآن من أنباء نواميس الله فى الأرض وقوانينه .. التى كانت غيبا على البشرية كلها فى عصره وبعد عصره ..؟ هنا الأمثلة كثيرة .. والمجال لا يتسع لها كلها .. ولكنى سأحاول أن أبين عددا منها فيها يختص بالاعجاز فى عصر القرآن لغير العرب .. فقد كانت هناك أمتان كبيرتان امبراطوريتان بجانب الجزيرة العربية . هما الروم والفرس .. الروم أمة مؤمنة .. أهل كتاب .. ولو أنهم لا يصدقون برسالة محمد إلا أن هناك عندهم إيمانا بوجود الله .. والقيم السماوية .. والفرس كانوا أهل كفر وإلحاد فى ذلك الوقت .. لا يؤمنون بأى دين من الأديان .. إذن فأيهما أقرب إلى قلب المؤمنين .. الروم باعتبارهم أهل كتاب .. وأيهما أقرب إلى قلب الملحدين والكفار .. الفرس باعتبارهم مشركين وكفرة .. قامت الحرب بين الدولتين .. فهزم الروم وانتصر الفرس .. وهنا فرح المشركون لأن الكفر قد انتصر .. وحزن المؤمنون لأن نوعا من الإيمان قد انهزم .. هنا يتدخل الله سبحانه وتعالى ليزيل عن المؤمنين هذا الحزن .. فيقول فى كلام محفوظ متعبد بتلاوته لن يجرؤ ولن يستطيع أحد أن يغير فيه .. يقول :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الروم)

ثم يمضى القرآن ليمعن فى التحدى ..

القرآن مزق حواجز الغيب

.. ما هذا ..؟ أيستطيع محمد صلى الله عليه وسلم أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين .. هل يستطيع قائد أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ..؟ فما بالك أن ذلك يأتى ويقول أنه بعد بضع سنين ستحدث معركة بين الفرس والروم وينتصر فيها الروم .. هل أمن محمد صلى الله عليه وسلم على نفسه على أن يعيش بضع سنين ليشهد على صحة ما جاء به القرآن .. إذن فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى .. هذا هو القرآن .. كلام الله .. وأساس الايمان كله .. يأتى ويخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب .. ويقول الكفار أن القرآن كاذب .. ويقول المؤمنون أن هذا صدق .. ويحدث رهان بين الاثنين ..

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس .. أو لو أنه حدثت معركة وهزم فيها الروم أكان بعد ذلك يصدق أى إنسان القرآن أو يؤمن بالدين الجديد .. ثم إذا كان القرآن من عند محمد فما الذى يجعله يدخل فى قضية غيبية كهذه .. لم يطلب منه أحد الدخول فيها .. أيضيع الدين من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد .. ولم يتحده فيها إنسان .. ولكن القائل هو الله .. والفاعل هو الله .. ومن هنا كان هذا الأمر الذى نزل فى القرآن يقينا سيحدث .. لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان .. ولا أى حجاب وهو الذى يقول ما يفعل .. ومن هنا حدثت الحرب .. وانتصر الروم على الفرس فعلا كما تنبأ القرآن ..

وهكذا تحدى القرآن الكفار وغير المسلمين فى وقت نزوله .. أى أنه لم يتحد العرب وحدهم .. بل تحدى الكفار والمؤمنين من غير العرب .. بأن أنبأهم بما سيحدث لهم قبل أن يحدث بسبع أو ثمانى سنوات .. تحداهم بهذا علهم يؤمنون ..

إذا انتهينا إلى هذا نكون قد أثبتنا أن القرآن تحدى العرب وغير العرب فى وقت نزوله .. ولكننا قلنا أن القرآن ليس له زمان .. وليس له مكان .. وانه سيظل حتى قيام الساعة .. فكيف يمكن أن يتحدى الأجيال القادمة ؟ .. لابد أن يكون للقرآن معجزة دائمة .. أن يعطى عطاء لكل جيل لم يعطه للأجيال السابقة ..

وقد كان .. جاء فى القرآن أشياء لو أن أحدا أخبر بها وقت نزولها لأتهم

الذين قالوها بالجنون . . ولكنها جاءت للعصور القادمة . . جاءت لتتحدى عبر الأجيال إلى يومنا . . وإلى الأيام القادمة . .

القرآن حدثنا . . عن المضلين

ان ظهور قانون الصدفة . . ونظرية داروين . . وأن المادة خلقت قبل الروح . . وكل ما نسمعه اليوم من تشكيك فى الايمان وفى وجود الله سبحانه وتعالى . . قد سجله القرآن . . وأنبأنا به . . وقال أن المضلين سيأتون ليقولوا لكم أكاذيب عن خلق السموات والأرض . . وعن قضية خلق الإنسان . .

وإذا لم يكن الحديث عن الأجنة فى القرآن . . عن يقين كامل . . لكان القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه . . ذلك أن هذا الكتاب سيستمر إلى يوم القيامة . . فإذا جاء العلم عبر ألوف السنين . . وأثبت عدم صحة ما ذكره القرآن . . ضاعت قضية الإيمان كله . . ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله . .

إن إعجاز القرآن لم يتوقف . . ولن يتوقف . . وإذا كان القرآن قد تحدى الكفار فى عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم . . وأنبأهم بمصائرهم . . فإنه يتحدى الكفار حتى فى هذا الزمان . . فى هذا الوقت الذى نعيش فيه . . بل ويستخدمهم . . فى ماذا . . ؟ فى اثبات قضية الإيمان . . تماما كما استخدمهم وقت نزوله فى اثبات قضية الايمان . . إن هدف الكفار والمضلين عن سبيل الله هو إنكار هذا الدين وإنكار وجود الله . . ولكن القرآن جاء . . وبعد أربعة عشر قرنا ليستخدم الكفار فى إثبات أن دين الله حق . . وأن هذا الكتاب هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . . وهذا هو موضوعنا . . عندما يقول الله سبحانه وتعالى :

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

ويقول :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . .

يكون قد أعطانى أن الإنسان يعلم ظاهرا عن الحياة فى هذه الدنيا ولكنه غافل عن أمر الآخرة . . أى أن مدى علم الإنسان . . هو الحياة الدنيا . . وأن العلم نوعان . . نوع مطروح لك لايجاد نشاطك فيه كما تريد . . وبلا قيود . .

ولا حدود . . ونوع ليس لك الحرية فى البحث فيه لأنك لا تعلمه . . وهذا النوع افعل كذا . . ولا تفعل كذا . . تقرب إلى بكذا . . واترك كذا . . هذه ليست اجتهاداتك أنت . . لأن المعبود هو الذى يقترح على العابد ما يعظمه به . . والنقاش فى شيء يجب أن يتم بين عقول متساوية أو متقاربة فى القدرة . . ومن منا يملك عقلا يقترب من قدرة الله تعالى . . لا أحد إذن . . فنحن نأخذ افعل ولا تفعل عن الله . . وما شرحته لنا السنة . . أما نشاطات الحياة الأخرى . . وآيات الله فى الكون . . فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل . . أصل إلى حقائق انتفع بها . . فإذا أردنا أن نحدد هذه الموضوعات . . نجدها فى القرآن . . فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ ﴾

(سورة فاطر)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى تكلم عن الجماد . . وتكلم عن النبات . . وتكلم عن الحيوان والإنسان . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » . .

العلماء فى ماذا ؟ فيما يتعلق بخلق الله من الجماد والحيوان والنبات والإنسان .

ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى المتناقضات الموجودة فى النوع الواحد . . لو أنه جنس واحد لما وجد فيه متناقضات . . إنما قوله تعالى :

« ثمرات مختلفا ألوانها » . .

كان يجب أن نلتفت إليها . . ولماذا اختلفت ألوانها . . وما هى العلاقة بين الألوان والطبيعة . . مثلا حينما يتغذى النبات وجد من الدراسة إنه يتغذى

بوساطة خاصية الأنابيب الشعرية . . وهنا نقف قليلا . . هل هذه الأنابيب الشعرية تميز . . هل تستطيع التمييز . . إذا جئنا بحوض . . ووضعنا فيه سائلا مذابا فيه أصناف مختلفة . . ثم جئنا بالأنابيب الشعرية . . نجد أن الماء قد صعد فى مستوى أعلى من مستوى الاناء . . ولكن هل كل أنبوبة ميزت عنصرا أخذته . . أم أن كل انبوبة أخذت من جميع العناصر وهى مذابة . . لكن النبات ليس هكذا . . انى أزرع الحنظل . . بجانب القصب . . فيخرج هذا حلوا . . وهذا مرا . . هذا يأخذ عناصره . . وهذا يأخذ عناصره من نفس التربة . . إذن هناك اختيار . . ومن هنا ظهر ما سمى بخاصية الانتخاب . . الانتخاب معناه الاختيار بين بديلات . . أى أنك تترك هذا وتأخذ هذا . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

« يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

لكن خاصية الأنابيب الشعرية تتعامل مع السائل كله . . بلا تمييز . . ومن هنا نعرف أن الخاصية شىء . . واختيار النبات للعناصر الغذائية التى يريدها أو يحتاجها شىء آخر . .

نأتى بعد ذلك للجماد . . يقول الله سبحانه وتعالى :

« ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . .

هذا علم الجماد . . وهو علم تحويه الآن مجلدات . . ثم بعد ذلك الإنسان . . أجناس الوجود كلها . . ثم بعد ذلك قال الله :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء »

العلماء فى ماذا ؟ بهذه كلها . . إذن كلمة العلماء أطلقت على من يتفكر فى خلق الله . . سواء كان جمادا أو حيوانا أو نباتا . . والذهن النشط يستطيع أن يصل إلى هذه العلوم الأرضية بالملاحظة والتجربة . . والدليل على ذلك إذا استعرضت تاريخ أى مخترع من المخترعات فى الكون التى أراحت الناس . . تجد إنها نتيجة لإنسان قد لاحظ بدقة . . ولم تمر عليه المسألة كباقى الناس . . والعلم مكانه المعمل والملاحظة والتجربة . .

حينما نتجاوز . . بلا دليل

ولكننا أحيانا نتجاوز موضوع العلم . . وموضوع التجربة والمعمل . . وذلك

عندما أقول مثلا الروح قبل المادة .. أو المادة قبل الروح .. فهذا بحث فى عنصرى تكوين الإنسان الذى لم نشهد خلقه .. ولا نستطيع أن نجرى عليه تجربة .. إن هذا فى علم الله .. فهو الذى خلق .. وهو الذى يستطيع أن يقول لنا كيف تم الخلق .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ..

إذن فهذه مسألة لا يمكن أن يصل فيها العلم البشرى إلى نتيجة .. لماذا ؟ لأننا لم نحضر التجربة .. ولم نرها بالعين .. ولا نستطيع أن نجربها أو نقوم بها .. ولكن بالأذن سمعنا عن الله .. وهذا أمر غيبى عنا .. ومادام الأمر غيبيا عنا .. فإن الله الذى خلقنى هو الذى يحدثنى .. كيف خلقت .. أما أنا فإننى لا أعرف كيف خلقت .. ومن هنا فإننى لا يمكن أن أتحدث علميا عن العنصرين اللذين يتكون منهما الإنسان .. وأيهما جاء أولا .. وإذا صمم أحد على أن يبحث فى هذا .. يكون قد شغل نفسه بعلم لا ينفعه عن جهل لا يضره .. لأنه لن يستطيع أن يدلل على ما يقول علميا .. وبالتجربة أنا أستطيع أن أمسك المادة وأدخلها المعمل .. ولكنى لا أستطيع أن أمسك بالروح وأدخلها إلى المعمل ..

والعلم يجب أن يتم على مادة صماء .. يمكن أن تدخل المعمل الأصم .. وتعطى حقائق صماء .. أليست هذه هى الحقيقة .. والدليل على ذلك أن المعسكرات المتصارعة لا تختلف فى مذاهب العلم .. ولكنها تختلف فى مذاهب الهوى والنظريات .. لا توجد هناك كهرباء أمريكية .. وكهرباء روسية .. ولا توجد كيمياء ألمانية ، ولا كيمياء انجليزية .. وكل علم الكيمياء .. فى أى دولة من دول العالم خاضع لما تعطيه التجربة الصماء التى لا هوى لها .. وبهذا تكون النتيجة واحدة .. سواء كان المعمل انجليزيا أو أمريكيا .. أو سوفيتيا .. أو أى معمل من معامل الدنيا .

ولكن الخلاف يحدث عندما تتدخل مذاهب الهوى والنظريات .. فإذا جئنا إلى مذاهب الهوى .. هوى النفس .. نجد أنها متناقضة .. ليست مختلفة .. ولكنها متناقضة .. هذا على النقيض من ذلك .. رأسمالية وشيوعية .. إيمان والحاد .. وانكار للديانات لماذا ؟ لأن هوى النفس دخل هنا فأفسد القضية العلمية وأضاع حقائقها ..

الكفار .. أثبتوا القرآن

فإذا أخذنا خلق الإنسان مثلا .. فإننا نأخذ هذا الخلق عن الله .. الذى خلق .. ماذا قال الله سبحانه وتعالى قال خلقتك من تراب .. وقال من طين .. وقال من حمأ مسنون .. وقال من صلصال كالفخار .. هذه ليست تناقضات فى الخلق .. أو تناقضات فى مادة الخلق نفسها .. وهى التراب .. بل أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أطوار هذه المادة من التراب إلى الطين إلى الحمأ إلى الصلصال .. إنها المراحل التى مر بها خلق الجسد البشرى من تراب إلى ما قبل نفخ الروح فيه .

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

(سورة الكهف)

ما معنى كلمة مضل .. كلمة مضل تعطى أن هناك قضية حق وأن هناك إنسانا يريد أن يضللنى ويعطينى عكس القضية .. أى يعطينى غير الحقيقة وهو الضلال .. هذا هو معنى مضل .. إذن قول الله :

« وما كنت متخذ المضلين عضدا » ..

أى أننى فى ساعة الخلق لم أطلب العون أو المساعدة أو المشورة .. أو النصيحة .. من هؤلاء المضلين .. وإلا لو كان حدث ذلك .. ثم جاءوكم يخبرونكم كيف تم خلق السماوات والأرض .. وكيف خلقتم أنتم .. لكان لكم العذر فى تصديقهم .. ولكن ماداموا لم يشهدوا الخلق .. ولم أطلب معونتهم .. فإن ما سيقولونه لكم غير واقع .. غير صحيح .. أنه اضلال .. وهذه معجزة من معجزات القرآن .. فقد قال لنا الله .. أنه سيكون هناك مضلون .. وان هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق فى قضية خلق السماوات والأرض .. وفى قضية خلق الإنسان .. فلا تصدقوهم لأننى لم أستعن بهم ساعة الخلق .. ولم يكونوا موجودين .. إذن لو لم يحدث أن جاء أناس يضلون عن سبيل الله .. لقلنا أن القرآن غير صحيح .. لأنه أين المضلون ؟ ولو وجد المضلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السماوات والأرض .. وخلق الإنسان لقلنا

القرآن مزق حواجز الغيب

إن القرآن غير صحيح .. لأنه لا يوجد من يضل عن سبيل الله ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السماوات والأرض .. ولا قضية خلق الإنسان .. ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم .. وهل المادة قبل الروح .. أم الروح قبل المادة .. وقانون الصدفة ونظرية داروين إلى آخر هذا الكلام .. كون هؤلاء جاءوا .. وكونهم تناولوا قضية خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فهذا اثبات لما جاء فى القرآن عنهم .. وكأن هؤلاء المضلين الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله .. إنما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الإسلامية وللقرآن .. بأنهم أثبتوا بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته .. أترى اعجازا أكثر من ذلك .. يستخدم الله الكفار الذين يضلون عن سبيله .. ويحاولون تكذيب القرآن .. يستخدمهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا وهم لا يدرون باثبات صحة الدين الذى يحاولون أن يهدموه وباثبات وجود الله سبحانه وتعالى .. وهم يريدون أن ينكروه .. فيقول فى قرآن نزل منذ أربعة عشر قرنا .. أن هناك من سيأتى ليضل عن سبيل الله .. ويتخذ من قضية خلق السماوات والأرض والإنسان مادة لهذا الاضلال وكل ما سيقولونه هو غير الواقع .. وأنا أنفى من الآن ما سيقولونه بعد مئات .. أو ألوف السنين .. وأقول لكم أنه غير صحيح .. إذن فكون هؤلاء المضلون جاءوا اثباتا للقرآن .. وكون أنهم قالوا غير الحق ولم يستطيعوا أن يدللوا عليه علميا .. وأخذوا يطلقون نظرياتهم .. كل نظرية تهدم الأخرى .. وهم يجتهدون فى محاولة هدم منهج الله .. ونحن نقول لهم انكم تثبتونه .. لأن الله أخبرنا عنكم فى القرآن منذ أربعة عشر قرنا .. وقال انكم ستأتون وستفعلون كذا وكذا فى محاولة لتضليل الناس .. وهدم القرآن .. أترى الاعجاز فى استخدام الكفار لتثبيت قضية الإيمان فى الكون ..

خـــلق الإنســـان

إذن فخالق الإنسان هو الله .. وخالق السماوات والأرض هو الله .. وهذا أمر غيبى نأخذه عمن خلق .. إلا أن الحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية غيبية .. فإنه ينير طريق العقل دائما بقضية نحسها ونشهدها .. تقرب القضية الغيبية التى يتحدث عنها .. فالله خلقنى من تراب .. من طين .. من حمأ

مسنون . . من صلصال كالفخار . . ثم نفخ من روحه . .

إذا أخذنا التراب . . ثم نضيف إليه الماء فيصبح طينا . . ثم يترك لتتفاعل عناصره فيصبح حمأ مسنونا . . كالذى يستخدمه البشر فى صناعاتهم . . ثم يجفف فيصبح صلصالا . . هذه أطوار خلق الجسد البشرى . . والبشر . . والخلق من الطين . . من الأرض .

فإذا جئنا للواقع . . فلنسأل أنفسنا . . الإنسان مقومات حياته من أين . . من الأرض . . من الطين . . هذه القشرة الأرضية الخصبة هى التى تعطى كل مقومات الحياة التى أعيشها . . إذن فالذى ينمى المادة التى خلقت منها هو من نفس نوع هذه المادة . . وهى الطين . . ولقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكونا من ١٦ عنصرا . . أولها الأكسجين . . وآخرها المنجنيز . . والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من نفس العناصر . . إذن فعناصر الطين الخصب هى نفس عناصر الجسم البشرى الذى خلق منه . . هذا أول اعجاز . . وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها اثبات صحة القرآن أو عدم صحته . . ولكنها كانت بحثا من أجل العلم الأرضى . .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من الموت دليلا على قضية الخلق . . فالموت نقض للحياة . . أى أن الحياة موجودة . . وأنا أنقضها بالموت . . ونقض كل شىء يأتى على عكس بنائه . . فإذا أردنا أن نبنى عمارة نبدأ بالدور الأول . . وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير . . إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود . . أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها انها تمثل أول خطوة فى العودة . . ونحن لم نعلم عن خلق الحياة شيئا . . لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق . . ولكننا نشهد الموت كل يوم . . والموت نقض للحياة . . إذن هو يحدث على عكسها . . أول شىء يحدث فى الإنسان عند الموت . . إن الروح تخرج . . وهى آخر ما دخل فيه . . أول شىء خروج الروح . . إذن آخر شىء دخل فى الجسم هو الروح . . ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق . . يتصلب الجسد . . هذا هو الصلصال . . ثم يتعفن فيصبح رمة . . هذا هو الحمأ المسنون . . ثم يتبخر الماء من الجسد ويصبح الطين ترابا . . ويعود إلى الأرض . . إذن مراحل الافناء التى أراها وأشهدها كل يوم هى عكس مراحل الخلق . . فهناك الصدق فى مادة الخلق . . والصدق فى كيفية الخلق . . كما هو واضح أمامى من قضية نقض

الحياة . . وهو الموت . .

شيء آخر يقول الله سبحانه وتعالى :

« ونفخت فيه من روحى » . .

ومعنى النفخ أى النفس . . أى أن هناك نفسا خرج من النافخ إلى المنفوخ فيه . . فبدأت الحياة . . وبماذا تنتهى الحياة بخروج هذا النفس . . فأنت إذا شككت فى أن أى إنسان قد فارق الحياة . . يكفى أن يقال لك انه لا يتنفس . . ليتأكد يقينا أنه مات . . إذن دخول الحياة إلى الجسد هو دخول هذا النفس . . مصداقا لقوله تعالى :

« ونفخت فيه من روحى »

وخروجها هو خروج هذا النفس . .

والإنسان . . فى بطن أمه

فالمسألة يقينا كما قال الله . . وإذا كنا نريد اعجازا أكثر . . فلننظر ماذا قال القرآن فى علم الأجنة . . علم تكوين الجنين فى بطن أمه وقد تناولت هذه المسألة فى فصل سابق . . ولكننى أعود فأقول . . هل تناول أحد هذه المسألة قبل القرآن أو عصر القرآن . . أو بعده بفترة . . أبدا . . أول من تحدث عنها هو القرآن . . وأعطانى ما هو غائب عنى . . لأن خلقى هو غيب . . فكون الله سبحانه وتعالى يأتى فى قرآنه ويعطينى مراحل تكوين الجنين . . فهذه آية من آيات عظمته وقدرته وعلمه . . يقول الله فى أطوار الجنين :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾

(سورة المؤمنون)

علم الأجنة ما عرفه الناس إلا حديثا . . والقرآن كما قلت كلام متعبد بتلاوته . . لا تبديل فيه ولا تغيير . . أى أن القضية التى يذكرها ستبقى كما هى

إلى آخر الدنيا . . فعندما يأتى القرآن ويخبر بهذا فكأنه يتحدى العلم والعلماء . . إلى يوم القيامة . . يقول لهم هذا هو تكوين الجنين فى بطن أمه . . وأنا أذكره لكم وأذكر مراحله بتفصيل لم يشهده أحد من البشر حتى ساعة نزول هذا القرآن . . ولا حتى بعد نزوله بمئات السنين . . ولكننى أسجله لتعلموا عندما أعطيكم من العلم ما تستطيعون به معرفة أطوار الجنين . . لتعلموا أن القائل هو الخالق . . لأنه لا يمكن لأحد أن يقول هذا الكلام . . وأن يتحدى بصحته على مر العصور . . وأن يخترق الحجب ليروى شيئا لم تكن البشرية تعرفه أو تعلم به . . إلا أن يكون ذلك هو الله . . وإلا فكيف يأمن أى إنسان . . أى بشر مهما بلغ من العلم . . كيف يأمن أنه بعد عشرات السنين . . أو مئات السنين . . لن يأتى من يناقض هذا الحديث . . وما يثبت عدم صحته . .

فإذا لم يكن الحديث هنا عن الله . . وإذا لم يكن عن يقين كامل . . فكأن القرآن قد أعطى وسيلة هدمه . . كان يكفى أن يقول إنسان أن القرآن يقول هذا عن أطوار الجنين . . وقد أثبت التقدم العلمى أنه غير صحيح . . كان يكفى أن يقال هذا ليهدم قضية الدين من أساسه . . ويكون القرآن قد أعطى للكفار أقوى سلاح يهدمونه به . . فالذى كشف علم الأجنة متأكد تماما أن ما يقوله هو الحق . . وأن تطور العلم مهما جاء فإنه لن يأتى ليناقض هذا الكلام . . ولقد أثبتت أحدث البحوث عن الجنين . . صحة ما ذكره القرآن منذ أربعة عشر قرنا . . ولم تختلف عنه . . فى أى تفصيل من التفصيلات . . رغم أن هذا كان أمرا غيبيا . . وأمرا لم يتحدث عنه أى إنسان قبل أن يأتى القرآن . . ومع ذلك فقد ذكره القرآن بالتفصيل . . وحدد أطواره وجاء العلم بعد ذلك ليثبت هذه الحقيقة . . إذن فلابد أن قائل القرآن هو الله . . لأن الذى يعلم يقينا هو الله وحده . .

والمعجـــزة . . مســـتمرة

إذن فالقرآن عندما نزل كان له أكثر من معجزة . . تحدى العرب فى بلاغتهم . . ثم مزق حواجز الغيب الثلاثة . . مزق حجاب الزمن الماضى . . وروى لنا بالتفصيل تاريخ الرسل وحوادث من سبقنا من الأمم . . وتحدى فيها . . ثم مزق حجاب المكان وروى لنا ما يدور داخل نفوس الكفار والذين

يحاربون الإسلام وما يبيتونه للمسلمين . . روى لنا ما يدور داخل نفوسهم . . ولم تنطق به شفاههم . . ولم يجرؤ واحد منهم أن يكذب القرآن ويقول لم تهمس نفسى بهذا . . ثم مزق حجاب المستقبل القريب . . وتنبأ بأحداث ستقع بعد شهور . . وبأحداث ستقع بعد سنوات . . وتحدى . . وحدث كل ما أنبأ به القرآن . .

ثم بعد ذلك مزق القرآن حجاب المستقبل البعيد . . ليعطى الأجيال القادمة من اعجازه ما يجعلهم يصدقون القرآن ويسجدون لقائله وهو الله . . ولكن القرآن نزل فى زمن لو أن هذه المعجزات المستقبلة جاءت تفصيلية لكفر عدد من المؤمنين وانصرف آخرون . . ذلك أن الكلام كان فوق طاقة العقول فى ذلك الوقت . . ومن هنا وحتى لا يخرج المؤمن عن إيمانه . . ويستمر الاعجاز . . جاء القرآن بنهايات النظريات . . بقمة نواميس الكون . . إذا تليت على المؤمنين فى ذلك الوقت . . مرت عليهم . . ولم ينتبهوا إلى مدلولها الحقيقى العلمى . . وإذا تليت بعد ذلك على الأجيال القادمة عرفوا ما فيها من اعجاز . . وقالوا إن هذا كلام لا يمكن أن يقوله شخص عاش منذ آلاف السنين . . إذن فلابد أن هذا القرآن حق من عند الله . . وأن قائله هو الله الخالق . .

بقيت نقطة . . هل يأتى هذا فى الأحكام ؟ الجواب : لا . . أن أحكام الدين افعل ولا تفعل . . نزلت كاملة واضحة لا لبس فيها ولا اضافة عليها ولا تبديل ولا غموض . . منهج الله كامل . . فسرته الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية . . وشرح وفسر فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تفسيرا كاملا . . بحيث أصبح واضحا لكل إنسان يريد أن يعبد الله . . وأن يعيش فى الأرض طبقا لقوانين الله . . افعل ولا تفعل . . جاءت واضحة وكملت وفسرت فى عهد الرسالة . . وأصبح الحلال بينا . . والحرام بينا . . والدين بينا . .

أما آيات الله فى الكون . . فنلاحظ أنها لم تفسر تفسيرا كاملا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . حتى لا تكون ملزمة للمسلمين . . لماذا ؟ لأن لهذا عطاء يتجدد فى كل الأجيال . . وهذه الآيات هى التى تحدثنا عن بعضها . . لقد تحدى القرآن العرب بالاعجاز فى اللغة . . طلب أن يأتوا بمثل القرآن ثم زاد فى التحدى وقال بسورة من مثله . . ولكن التحدى للعالم لا يمكن أن يكون باللغة . . فاللغات مختلفة . . إذن بماذا تحداهم . . بالعلم . . وكان التحدى

مطلقا إلى يوم الدين . . قال أنتم جميعا لن تستطيعوا أن تخلقوا شيئا . . حتى نهاية العالم . . ثم تحداهم بخلق ماذا . . بخلق كون كالذى خلقه .؟ لا . . بخلق مجموعة شمسية من عشرات المجموعات الشمسية الموجودة فى الكون .؟ لا . . بخلق شمس أو قمر أو نجم .؟ لا . . إذن تحداهم بخلق الكرة الأرضية مثلا .؟ أبدا . . لابد أنه تحداهم بخلق الإنسان . . أبدا . . لقد تحداهم أن يخلقوا ذبابا ففى سورة الحج قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾

(سورة الحج)

وهكذا تحدى الله البشرية كلها إلى يوم القيامة بأن يخلقوا ذبابة . . وقال أن العلم الذى ستعبدونه من دون الله والذى ستؤمنون به . . هذا العلم وكل القائمين عليه لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا . .

« إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » . .

ثم قال الله سبحانه وتعالى :

« ضعف الطالب والمطلوب » . .

وأضاف :

« ما قدروا الله حق قدره » . .

والعجيب أن الإنسان قد وصل إلى القمر . . وقد يصل إلى المريخ . . وقد يستكشف أبعد من ذلك . . ولكنه عاجز عن أن يخلق جناح ذبابة حتى الآن . . وهو طلب ضعيف جدا بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق ملايين الكائنات . . ولذلك قال الله :

« ضعف الطالب والمطلوب » . .

ثم أضاف سبحانه وتعالى :

« ما قدروا الله حق قدره » . .

أى أن قدرة الله سبحانه وتعالى تفوق كل الحدود والتصورات التى قد ترد على خواطركم . . وأنتم لا تعرفون قدرة الله . . ثم تحدى الله بعد ذلك فى قرآنه . . تحدى باستمرار الحياة . . الماء الذى خلق منه كل شىء حى . . قال الله تعالى :

« أفرأيتم الماء الذى تشربون . . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » . .

وقال تعالى :

« ينزل الغيث » . .

أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرسل إليكم الأمطار والماء يأتى مدرارا ليسقى الدنيا كلها . . البشر والطيور . . والوحوش ، والزرع وكل شىء حى . . هذا الماء الذى تعب منه البشرية كلها عبا . . تجد الإنسان عاجزا عن أن يصنع نهرا مع أن عناصر تكوين الماء موجودة فى الكون . . أمام العلماء . . والمساحات الشاسعة من الصحارى فى الأرض محتاجة إلى قطرة ماء . . ثم تحدى الله سبحانه وتعالى بعد ذلك . . تحدانا بأن نهرب من الموت . . قال :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

. . أى أن الله سبحانه وتعالى يتحدى فمهما وصلتم إلى العلم . . فلن تستطيعوا أن تنجو من الموت . . انكم تقولون فى العلم الأرضى أن الموت يحدث بسبب جراثيم كذا . . وأمراض كذا إلى آخره . . حسنا . . شيدوا برجا وضعوا فيه إنسانا . . وأبعدوه عن كل المخاطر التى فى رأيكم وفى نظركم . . وفى علمكم . . تسبب الموت . . فلا هو يحارب ولا يمشى فى أى مكان ليصاب فى حادث . . فلا يستنشق هواء ملوثا بل يستنشق هواء نقيا . . ويأكل من طعام مطهر على أحدث الوسائل الصحية . . ويشرب من ماء ليس فيه جرثومة واحدة . . والجو الذى يعيش فيه منقى إلى آخر درجات العلم . . هنا نكون قد أبعدنا عن هذا الإنسان كل مسببات الموت التى نعرفها . . ومع ذلك فهل يمكن أن يكتب لإنسان مثل هذا الخلود رغم أننا منعنا عنه كل الأسباب الظاهرية للموت . . الجواب طبعا مستحيل . . لأن الله هو الذى يحيى ويميت . . والأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تفعل بإرادة الله . .

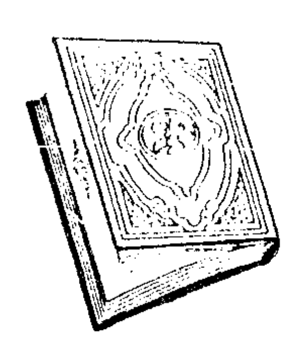
ثم تحدى الله العالم كله فى القرآن بخمسة مغيبات . .

القرآن مزق حواجز الغيب

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

تحدى الله بهذه المغيبات .. تحدى البشر جميعا .. فكأن القرآن كما تحدى العرب فى اللغة عندما نزل .. حمل تحديات للعالم أجمع .. وقال لهم : إنكم لن تصلوا إلى كذا وكذا إلى آخره .. عشرات التحديات التى ساقها القرآن للبشرية جميعا .. قال لن تصلوا إلى كذا .. لن تفعلوا كذا .. لن تخلقوا كذا .. وكانت هذه التحديات لكل البشرية .. ولكل العصور .. ومازالت قائمة حتى الآن .. ومازالت البشرية كلها عاجزة أمام قدرة الله .. لماذا ؟ إن السر يكمن فى كلمتين .. « سبحان الله » .. وليس كمثله شىء .. وهذا هو موضوع الفصل القادم ..





الفصل الثامن

سبحان الله

سبحان الله

الإنسان فى علاقته بالله سبحانه وتعالى يدخل فى حالات متعددة تتغير فيها طبيعة اتصاله بما هو غيب عنه بالنسبة للشخص الواحد . . فالإنسان مثلا حين يكون فى يقظة . . وفى حياته اليومية يرى الأشياء بقدر ما تعطيه هذه اليقظة من وعى دنيوى . . أو بقدر ما يحجب عنه جسده المادى من أشياء قد لا يعرف عنها شيئا . . والإنسان وهو يقظ خاضع للعقل خضوعا كاملا . . فإذا نام مثلا تغير الحال . . وأصبح يرى فى نومه أشياء لا يراها فى اليقظة ولا تدخل فى نطاق العقل البشرى . فيمكن أن يرى نفسه يطير فى الهواء مثلا . . أو يرى نفسه فى أماكن لم يرها فى حياته الدنيوية . . أو يتحدث فى الحلم مع أشخاص ماتوا إلى رحمة الله منذ مدة طويلة . . وفارقوا هذه الدنيا . . أو يرى أشياء عجيبة تحدث له لا تتفق مع العقل والمنطق . . ولا مع مهاراته . . فقد يرى مثلا أنه يركب حصانا وهو لا يعرف ركوب الخيل . . أو أنه يقوم بعمل لا يتقنه فى الدنيا . . والعجيب أن الرؤيا تتم . . والعين مغلقة تماما . . أى أن الذى يرى ليس هو العين . . وإنما الروح . .

إذن فالروح لها رؤيا خاصة وهى يمكن أن تلتقى مع الذين فارقوا الدنيا وتتحدث معهم . . والإنسان نائم . . يكون فى عالم آخر غير عالم اليقظة . . وتلتقى روحه وهو نائم مع أمه أو أبيه الذين فارقوا الحياة منذ سنوات . . ويرى أشخاصا وأشياء لم يعرفها فى حياته . . بل ولا تتفق مع منطق الحياة . .

ولكن ما الذى يجعل الإنسان يرى وهو نائم ومغمض العينين ما لا يراه . . وهو مستيقظ . . وما الذى يجعله يرى أماكن لأشخاص لم يشاهدهم فى حياته . . فإذا استيقظ ضاع كل هذا . . وبماذا نفسر هذه الظاهرة . . نقول أننا حين نصل إلى أشياء تقف فيها عقولنا لأنها تخالف ما نعتاد ونألف نضعها تحت عنوان « سبحان الله » وليس كمثله شىء . . ذلك لأننا لا نعرف قوانين الروح والجسد قائم . . ولا نعرف قوانينها بعد أن تفارق الجسد . . ذلك غيب عنا . . تعجز عنه عقولنا . . لذلك نضعه تحت عبارة . . « سبحان الله » وليس كمثله شىء . .

ونفسر هذه العبارة قليلا . . إذا قلت أن فلانا قد ضرب فلانا بكل قوته . . هل تعنى شيئا . . الجواب أبدا . . لا يكون للشىء معنى إلا إذا نسب لفاعله . .

ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل . . بمعنى أننى إذا قلت أن طفلا صغيرا عمره أشهر ضربنى بكل قوته . . وقلت أن بطل العالم فى الملاكمة ضربنى بكل قوته . . فهناك فرق كبير بين المعنيين . . الأول ضربه لا يؤثر فى . . ولا أحس به . . والثانى ضربه قد يقتلنى . . مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التى وهبها الله لهما فى عملية الضرب . . ولكن الفعل هنا يتناسب مع الفاعل . . فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه . . وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعى بسهولة . .

لى قوة . . وله قوة

إذا أخذنا هذا المثل . . ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . استطعنا أن نقرب كثيرا من المعانى التى قد يستغلها البعض لاضلال البشر . . الله سبحانه وتعالى قوة . . ولى قوة . . ولكن هل قوتى مثل قوة الله سبحانه وتعالى . . الله سبحانه وتعالى علم ولى علم . . ولكن هل علمى مثل علم الله سبحانه وتعالى . . الله حى . . وأنت موصوف بالحياة . . فلا تقول إن حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى . . وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك . . وعلمه ليس كعلمك . . وقدرته ليست كقدرتك . . ومن هنا يخرج وجه المقارنة . . حيث انه لا مقارنة . . فالله بقدرته وقوته يأتى تحت وصف « **سبحان الله . . وليس كمثله شيء** » . . ومن هنا فإننى لا يجب أن أنسب إلى نفسى بالمدلول البشرى ما يقول الله سبحانه وتعالى عن ذاته . . فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتى . . ولكننى أقول « **سبحان الله . . وليس كمثله شيء** » . . وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامى . . وإنما أضعه تحت عبارة « **سبحان الله . . وليس كمثله شيء** » .

ومن هنا تجد تحت هذه العبارة « **سبحان الله وليس كمثله شيء** » . . أننا نستطيع أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة . . فأنت مثلا لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه . . وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان « **سبحان الله وليس كمثله شيء** » . . لأنه شتان بين رؤياك ورؤيا الله سبحانه وتعالى . . مثلا سبحان الذى أسرى بعبده . . من الذى أسرى . . الله سبحانه وتعالى . . أسرى به إلى المسجد الأقصى . . لا تأتى لى فى هذه الحالة

بقوانين الزمان . . وقوانين المكان التى تنطبق عليك أنت . . والتى تستطيع أن تراها وتتصورها . . ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله . . لماذا . . لأن الله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإن هذه القوانين التى تحكمك لا تحكمه . . والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى . . لأنه ليس كمثله شيء . . الذى أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حين قال بعض الناس أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس . . ويصعد إلى السماء . . ويعود فى ليلة واحدة . نقول أن محمدا عليه الصلاة والسلام لم يدع ذلك . . وإنما أسرى به . . والذى أسرى به هو الله سبحانه وتعالى . . والله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة إلى آخر كل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الاسراء . . لأن الله هو الفاعل . . « **والله ليس كمثله شيء** » . وإذا كان كل شيء يأتى بالتشابه . . فإن الذى يأتى من الله سبحانه وتعالى « **ليس كمثله شيء** » . . ولذلك عندما نقول « **سبحان الله وليس كمثله شيء** » . . فإننا نعلو به سبحانه علوا كبيرا عن كل شيء يأتى بالتشابه . . إذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنه له . . أما عن كيفيته فلا أحد يستطيع أن يصل إليه . . لماذا ؟ لأنه **ليس كمثله شيء** . .

القـــدرة . . والعـــلم

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التى يؤيد بها أنبياءه . . أو عن عالم الملائكة والجن الذى لا نراه . . فنحن نعرف أن هذه حقائق . . لأن الله سبحانه وتعالى قادر . . وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها . . عالم وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته علم البشر . . ومن هنا فهو يخلق ما نرى . . ويخلق ما لا نرى . . ويخلق ما لانراه الآن . . وقد نراه فى المستقبل . .

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده . . ومن هنا فإنه يضع فى الكون آيات تقرب إلى العقل البشرى . . ذلك الذى يعجز عنه هذا العقل . . وتجعله قريبا من تصوره . . وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا . . وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين . . وأن نرد عليهم . . والإنسان المؤمن دائما فى قلبه سكينة . . وفى قلبه أمل . . ذلك أنه

مؤمن بقدرة الله التى هى بلا حدود . . ويؤمن بأن الله الذى كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه انجاء المؤمنين . . وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا . . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع الضر عنه . . ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس فى الروح . . يأتى واحد منهم ويقول ما هذا عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق إلا ما نراه . . ويجادل . . ويجادل . . إلى آخر هذا الكلام . . فإذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليه أنه وأنت أيضا لم تشهده . . وهنا ترد عليه بأن الله سبحانه وتعالى وقد وضع لنا فى هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع موجود فى هذا العالم منذ خلق الأرض ومن عليها . . وإنما هو خرج من علم القادر . . وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان . . ليدل على أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ولنناقش هذه المسائل الثلاث . .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وإن كان قد أصبح فى قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة . . فإن يطير الإنسان فى الهواء مثلا بطائرة . . كان فوق قدرة العقل فى الماضى . . بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلا . . إنك ركبت طائرة . . وطرت فى الهواء . . لاتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت انك تحدثت فى آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر فى وقت واحد . . لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد . . ذلك إن هذا فوق قدرة العقل البشرى . . ولكنك الآن تذهب إلى أى مطار فتركب الطائرة . . وتطير فى الهواء . . وتتحدث فى الإذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الإنسان غلافا جويا جديدا للأرض يمكنه من الطير . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا هذا . . ولا ذاك طبعا . . إنما الغلاف الجوى كما هو منذ خلق الله الأرض ومن عليها . .

وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذى حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشرى إلى

علم البشر .. أى أن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر بكلمة كن .. فاستطاع الإنسان أن يطير فى الفضاء .. وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله .. وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشرى موجود .. وإن العقل البشرى ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة .. فى هذه الأرض .. وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علما كان فوق قدرة البشر .. أعطاه للقدرات البشرية .. حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه .. وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود .. وحقيقة واقعة .. وأنه يمكن أن يجهلها ..

فوق الأسماع .. والأبصار

هذا بالنسبة للعقل .. أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الأذن فذلك شىء نعرفه كل يوم .. إذا جلست أنت فى حجرة مغلقة ليس فيها أى صوت وسألت أنا .. هل يوجد صوت فى هذه الحجرة .. تقول لى أنا لا أسمع شيئا .. وكونى لا أسمع شيئا .. فإنه لا يوجد صوت فى هذه الحجرة .. فإذا «فتحت الراديو» سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيا .. من أين جاءت هذه الأصوات .. هذه الأصوات تسبح فى جو الحجرة .. ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فوق قدرة الأذن .. فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هذه الأصوات فى قدرة الأذن .. كان فى امكانك أن تسمعها وتميزها .. إذن فهذه الأصوات موجودة .. ولكنك لا تستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها .. وربما فى المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو فى علم الله .. ولم يصل إلى العلم البشرى .. تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتا لا تسمعها الآن .. ولا ندرى عنها شيئا .. بل انى أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيرة .. إذا أتيت بالراديو الترانزستور .. ووضعت سماعة الأذن الصغيرة فى أذنك .. وجلسنا نحن الاثنين معا بجوار بعضنا البعض .. وسألتنى هل أسمع شيئا .. سأقول لا .. هل يوجد صوت هنا .. سأقول : لا .. بينما أنت جالس إلى جوارى .. والسماعة فى أذنك تسمع الدنيا كلها .. كما تشاء .. وأنا بجانبك لا أسمع شيئا .. ما معنى هذا .. معناه أن الجهاز الذى تستخدمه قد جعل الأصوات التى تسبح فى

الحجرة . . التقطها وجعلها فى مقدرة أذنك . . بينما أنا جالس إلى جوارك . . وفى نفس المكان . . ولكن هذه الأصوات فوق قدرة سمعى . . هل معنى ذلك أن الأصوات التى تسمعها أنت بسماعة الراديو غير موجودة . . لأننى لا أسمعها . . مستحيل . . ولكن معناها أن هذه الأصوات التى تسمعها أنت وحدك . . والتى هى فوق قدرة أذنى موجودة . . ولكنى غير قادر على سماعها لأنها فوق قدرة أذنى . .

نكون بذلك قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود .

ثم نأتى إلى ما هو فوق قدزة البصر . .

أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التى يتحدث عنها الله . . ومن هنا فهى غير موجودة . . وأنا آتى لك بنقطة ماء من الترعة . . وأقول لك هل ترى فى هذا الماء شيئا . . ستقول لا . . وعندما أضع الماء تحت الميكرسكوب تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التى تتحرك بشكل عجيب . . أقول لك انظر فى الميكرسكوب . . سترى هذه الجراثيم . . بينما أن الإنسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه . . فإنك لا ترى فيها شيئا . . فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب . . أو وضعت عليها سائلا معينا تكتشف جراثيم وأشياء عجيبة . . أين كانت هذه الأشياء . . كانت فوق قدرة بصرك . . فعندما استعنت بآلة مكبرة جاءت من خارج قدرة البصر لتصبح من الممكن رؤيتها . . ولكن هل عدم رؤيتك لهذه الجراثيم معناها أنها غير موجودة . . أو ان هذه الجراثيم لم تكن موجودة قبل اختراع الميكرسكوب . . كانت موجودة قطعا . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . وجاء اختراع الميكرسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة البشرية . . ولكنها كانت موجودة رغم أنك لا تراها . .

وإذا جلست فى حجرة فيها تليفزيون . . هذه الحجرة ليس فيها صورة . . فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة . . بل ورأيت وأنت جالس أمامك إنسانا يمشى فوق القمر . . هل فى قدرة البصر أن يرى إنسانا يمشى فوق القمر . . الجواب نعم . . إذا استخدم امكانيات الله فى الكون . . ولقد استخدم العلم امكانيات الله فى الكون فى نقل الصورة من مكان إلى آخر . . فالعلم لم يخترع طبقات الجو التى تنقل الصورة . . ولا يستطيع أن يخترعها . .

بل اكتشفها . . والله هو القادر الذى كان فى علمه كل هذا . . وأخرجه إلى علم غير القادر . . وهو الإنسان . . لماذا ؟ ليعلم الإنسان علم اليقين . . إن ما هو فوق قدرة عقله موجود . . وإن ما هو فوق قدرة سمعه موجود . . وإن ما هو فوق قدرة بصره موجود . . حتى إذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هى فوق قدرة العقل . . أو السمع . . أو البصر . . عرف يقينا إنها موجودة . . وإن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق . .

إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلا . . وموجود بفرق شاسع جدا . . هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق . . والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانية . . وهى قضية الغيب ألا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس . . ويبعدوهم عن طريق الله . . فجعل العقل البشرى نفسه ينتقل بقدرة الله ومن جبل إلى جبل مما هو مستحيل عقليا إلى ما هو ممكن . . ليثبت إن ما فوق قدرة العقل موجود . . وجعل الأذن تستطيع بقدرة الله أن تنتقل مما هو فوق قدراتها العادية . . وجعل العين تستطيع أن ترى ما لم تكن تحلم بأنها ستراه . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى كل هذا العلم للعقل البشرى فى اللحظة الأولى التى خلقه فيها . . ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للإنسان عطاء فيه اثبات لقدرة الله . . وفيه اثبات لوجود الغيب . . وفيه اثبات لما هو فوق القدرات البشرية . .

علـــم البشــر

على أن العلم البشرى يتحدد فى شيئين رئيسيين . . علم مادى يخضع للتجربة البحتة . . لا يدخل فيه هوى البشر . . ذلك العلم هو الذى يتناول المادة فقط . . وهو الذى يمكن أن يفحص فى المعمل . . وتجرى عليه التجارب . . وليس فيه هوى النفس البشرية . . وهذا العلم هو الذى أتاحه الله للعقل البشرى . . وطلب منه أن يجتهد فيه . . ووعد الله بأن يكشف آياته فى الكون لأولئك الذين يعملون . . ويبحثون . . ويجرون التجارب . . ويجتهدون . . وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء . . وذلك ما لا يدخل فى معمل . . ولا يمكن اجراء تجارب عليه . . وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية . . والسياسية . . وكل شىء لا يخضع لتجربة المعمل . . هذا العلم تختلف فيه

الأهواء وتتصارع . . وسيظل الصراع بينها إلى يوم القيامة . . لأن هذا العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة . . وإنما تدخل فيه الأهواء الشخصية . .

النوع الأول من العلم صاحبه يظل يعانى حتى يصل إلى هدفه . . فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم . . فالعالم مثلا الذى يجرى تجارب فى معمله . . على اختراع جديد . . أو شىء جديد . . يظل يسهر ليالى طويلة حتى يصل إلى نتائج . . فإذا وصل إلى نتائج استفادت منها البشرية كلها . . وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك . . فهناك مثلا اكتشاف الكهرباء . . واختراع الراديو والتليفزيون . . والتليفون . . إلى آخر هذه الأشياء التى اقتضت بحثا من أصحابها . . فإذا وصل البحث إلى نتيجة استفادت منها البشرية كلها .

أما النوع الثانى من العلم . . فهو الذى يخضع للهوى . . فإن صاحبه هو الذى يستفيد . . وغيره يعانى ذلك . . إنه يضع العلم على هواه . . وعلى أساس ما يرضيه هو . . ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية . . لا يعانى شيئا بقدر ما يعانى أولئك الذين يخضعون لها . . أو ينفذونها . .

ماذا قدم العـــلم

ماذا قدم العلم للبشرية . . تعالوا نناقش ذلك من واقع التجربة العلمية . . أن أساس الحياة البشرية من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير . . ولم يتبدل . . ولا يستطيع العلم أن يجد له بديلا . . وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر . . أى أنه يجعل الحياة أكثر سهولة . . وأكثر نعومة . . ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة . . بل أن الله سبحانه وتعالى علما منه بظلم الإنسان للإنسان . . جعل مقومات الحياة فى يده . . وما أعطاه منها ليد البشر . . أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادرا على اهلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق . .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . مقومات الحياة من كرة أرضية . . وشموس . . ونظام كونى لا دخل للإنسان فيه . . ولا يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة . . أو شمسا جديدة . . أو نجوما جديدة . . أو سماوات جديدة . . إلى آخر هذا . . هذا خلق الله . . والعلم إذا استطاع أن يكتشف الآيات فيه . . يكون قد تقدم تقدما هائلا . . ولكنه لن يستطيع أن

يخلق شيئا فيه . . أو يبدله . . أو يغيره . . وإذا كنا نتحدث الآن . . ونحن فى عصر العلم . . فتلك حقيقة هامة . . لا يستطيع أحد الجدال فيها . .

نأتى بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض . . الهواء . . والماء . . والطعام . . لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض . . الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق . . ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم فى البشر . . فالله شاء أن يكون الهواء مباحا للناس جميعا . . لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك . . بل إنه أخضع الهواء لعدله . . فكان متساويا بين الناس جميعا . . فقيرهم وغنيهم . . وعظيمهم وحقيرهم وذلك الذى لا يملك من أسباب الدنيا شيئا . .

. . فهم جميعا يتنفسون بنفس السهولة . . ونفس الطريقة دون أى عناء . . يصلهم الهواء إلى حيث هم . . وأينما كانوا . . فى حجرات مغلقة . . أو فى الطريق . . أو فى السيارة . . أو فى أى مكان فى العالم . . فإن الهواء يصلهم سهلا . . ميسرا . . متاحا للجميع . . وهذا عدل الله سبحانه وتعالى . . ولا دخل لبشر فيه .

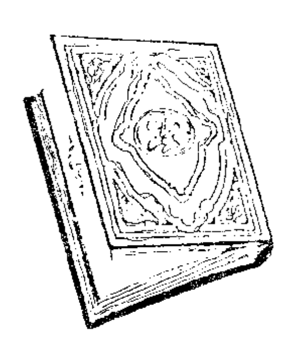
نأتى بعد ذلك إلى الماء . . وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوما . . أو عدة أيام . . نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة . . والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة . . ومحدودة . . وإن كانت لها امكانيات . . وهنا يتدخل ظلم الإنسان . . ولكن بقدر محدود جدا . . نظرا لأهمية الماء للحياة . . البشرية . .

ثم نأتى بعد ذلك للطعام . . فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه . . أكبر . . ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر . . ومن ثم فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام . . ولكنه فى نفس الوقت يستطيع الإنسان أن يحصل على ما يقيم أوده . . أو يبقى الحياة فى جسده بسهولة . . نظرا لأن الكمية التى يحتاج لها الجسم البشرى من الطعام قليلة نسبيا . . فهى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيمات يقمن أوده أو كمية محدودة من الطعام . . وكلما زاد اقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته . .

هذه هى مقومات الحياة الثلاثة . . شىء لا يستغنى عنه الإنسان ولا يستطيع الحياة بدونه أبدا . . وهو الهواء . . نافذ فيه عدل الله . . ليحصل كل إنسان

على حاجته بلا عناء . . وشيء يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه يوما وهو الماء . . متوافر للناس . . وشيء ثالث وهو الطعام تحكم البشر فيه أكثر . . ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر . . وهنا ترى عدالة السماء فى توزيع مقومات الحياة . .

ادعو الله أن يوفقنا إلى سواء السبيل . . ويهدينا إلى صراطه المستقيم . .



محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ٣٣٢١ / ٩٣

الترقيم الدولى / .I. S. B. N

977 - 08 - 0175 - 5